الفصل الخامس

الإسلام يدعو للتعايش مع الآخر

« عالم بلا شقاق »

obeikandl.com

obeikandl.com

الإسلام يدعو للتعايش مع الآخر

« عالم بلا شقاق »

مقدمة:

معرفة النفس لا تغنى عن معرفة الآخرين، ومعرفة الآخرين لا تغنى عن معرفة النفس، ولا يحسبن أحد أن هذا المنهاج فى الاستنارة الحقيقية هو وليد الواقع المعاصر، وما شهد ويشهد من تسارع وتعاظم فى ثورة وسائل الاتصال ، فمن القرآن الكريم نتعلم المنهاج الذى يدعونا، بعد الوعى بالذات واليقين بالحق الذى نؤمن به، وننتمى إليه، ونجاهد فى سبيله.

يدعونا هذا المنهاج القرآنى إلى التعرف على الآخرين من حيث الفكر، العرق، اللون، الجنس – النوع – بل والتأمل فيما يقولونه عنا، والتأمل فى صورة ذاتنا لدى هؤلاء الآخرين[١] .

وإن الدعوة للتعايش بين الإسلام والأديان ليست دعوة جديدة بل هى قائمة منذ أربعة عشر قرنا وبضع سنين فى الشرق العربى الإسلامى، حيث إن عددًا كبيرًا من أصحاب الأديان مشتركون فى المواطنة مع المسلمين فوجدوا فيهم العدل والإنصاف، وحسن الجوار فى المعاملة الحسنة، فعاشوا جنبًا إلى جنب متعاونين بل ومنهم من هدى الله، فأسلموا وحسن إسلامهم، ونفع الله بهم أهلهم وقومهم ونفع الإسلام والمسلمين[٢].

ولكن ما يهمنا هنا أن نقول للمسلم: يجب أن تكون نموذجًا مثاليًا لأخلاق الإسلام الفاضلة، فتدعو إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتجادلهم بالتى هى أحسن، ولا يوجد أفضل من الأسلوب الهادئ فى الإقناع الذى يقوم على الحجة العقلية البالغة والنص الصحيح الصريح.

وإن كلمة الإسلام مشتقة من كلمات السلم والسلام، أو فى مفهوميهما معنى

---

(١) محمد عمارة: ندوة بعنوان "الاستنارة بين الذات والآخر .. مقاربة قرآنية لاستشفاف الضرورات. موقع الندوة على النت?www.author.aspname.

(٢) عبد الله بن صالح العبيد: الإسلام والتعايش بين أصحاب الأديان، بحث مقدم للمؤتمر العام العاشر للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، ١٩٩٩، بعنوان: "الإسلام والقرن الحادى والعشرون"، ص١٦٩.

الاستسلام لنواميس الكون ولسنن الله تعالى التى قدرها، وهو ذات معنى المسالمة فى معاملة الناس[١] ، والسلام اسم من أسماء الله الحسنى قال تعالى:﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ﴾ [الحشر : ٢٣] .

ولقد مر التعاون بين الأديان والملل بمراحل مختلفة، إذْ كان التعصب الدينى والمذهبى بدايتها، وهو ما كان يقود إلى التعنت والتصلب فى العلاقات بين معتنقى الأديان وأتباع المذاهب، وهو ما كان يقود فى أحيان إلى الحرب، وإن تبدل الموقف فى العصور الحاضرة إلى نبذ هذا التعصب والتطرف، وتبنى الحرية الدينية والتسامح والتساهل فى الاعتناق، وكان هناك من يؤيد فكرة التقارب والتعارف بين الأديان وطرح الحوار المشترك.

ولقد قرر الإسلام أن الناس جميعهم من أب واحد وأم واحدة وهم أخوة، وفى ذلك يقول الرسول ﷺ : «**أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة**»[٢] ، وبين الإسلام أن هذه الإخوة لها حقوق وواجبات تعود فى جملتها إلى ما يحقق التعاون والتآزر والتآلف، وقد ذكر القرآن الكريم ذلك فى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات : ٦-١٣] ، وقال ﷺ: «**إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تنابزوا، وكونوا عباد الله اخوانًا**»[٣] .

هذه هى المعانى السامية التى تربى عليها المسلمون فى عهد الرسالة، ونقلوا هذه المبادئ لمن يليهم وهكذا.

ودائمًا الإسلام يحث المسلمين على التسامح والعفو، قال تعالى:﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النور] .

وينبغى استخدام المصالح المتبادلة بين الإسلام والغرب – العالم الإسلامى والغربى –

---

(١) جاسم على سالم: الدين الإسلامى نظام للسلام، المقدم للمؤتمر العام الرابع عشر للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، ٢٠٠٣، بعنوان: "حقيقة الإسلام فى عالم متغير"، ص٢٦٩.

(٢) أخرجه أبو داود: جـ٢/ ١٣، رقم (١٥٠٨).

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه: جـ٤/ ١٩٨٢، رقم (٢٥٦٣).

كوسيلة لكسب التأييد لقضايا العالم الإسلامى، أو على الأقل تحييد القوى العالمية بحيث لا تنحاز مع القوى المعادية للإسلام والمسلمين، انطلاقًا من حاجة العالم الغربى للعالم الإسلامى، وعلى نفس القدر حاجة العالم الإسلامى للعالم الغربى، ومن هنا تأتى السياسة التى يجب على العالم الإسلامى اتباعها وتفعيل الآليات المؤثرة.

بين التدافع والصراع:

منهج الدعوة إلى الله فى الإسلام قائم على الحوار، وهناك حوارات وحوارات فى القرآن الكريم تدل على دعوة الإسلام للتحاور والمناظرة، وتهدف إلى الوصول إلى الحق فلم تكن حوارات لأجل الجدل، بل هى حوارات هادفة، ومن هنا لا يقبل الإسلام الحوارات التى لا تقدم ولا تؤخر.

إن دعوة الإسلام إلى الحوار، دعوة يقصد بها الحوار الذى يأتى بالخير وينتج السعادة والتعاون على البر والتقوى، لا على الإثم والعدوان، ويؤدى إلى رقى الأفراد ورقى الجماعات، ولذلك جاء النهى عن الجدل بالباطل والكذب[1].

والحوار الذى نقصده هو ما عبر عنه أحد المفكرين المسلمين المعاصرين باصطلاح "التدافع" وهو حراك اجتماعى وثقافى وحضارى، أى تنافس وتسابق بين الحضارات يعدل المواقف الظالمة، والممارسات الجائرة، والعلاقات المنحرفة، دون صراع يصرع الأطراف الأخرى، فيلغى التعددية، وإنما بالحراك والتسابق الذى يعيد العلاقات المختلفة إلى درجة التوازن والعدل فى العلاقات بين مختلف الفرقاء، إنه الحوار الذى يقوم على إيمان الجميع بأن التعددية سنة من سنن الله، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [هود]، وهذا الاختلاف سبب فى إغناء الحضارات وسبيل للتعارف والتعاون ،وليس سببًا للفرقة والاختلاف والتباعد، إذ هو ضرورة، كما أن الحوار ضرورة[2].

والحوار عملية تشكل الإنتقال من مرحلة التدافع، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [البقرة] إلى مرحلة التعارف والتعاون، قال تعالى:﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا ﴾ [الحجرات: ١٣]. إنه الحوار الذى تحكمه

---

(١) أحمد فراج: حقوق الإنسان فى الإسلام من سمات الحضارة الإسلامية ، مقدم للمؤتمر العام السابع عشر للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية فى الفترة من ٨ – ١١ من ربيع الأول ١٤٢٦هـ / ١٧ – ٢٠ أبريل ٢٠٠٥م، القاهرة، ص٢٠٧.

(٢) أحمد فراج: مرجع سابق، ص١٩٨.

عندنا قاعدة شرعية تقول:" أن نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه".

إنه الحوار الذى نكتشف فيه خصوصيتنا ونحددها، ونكتشف المشترك بيننا وبين الآخرين ونثبته، ونتفق على أنه مشترك ونتعاون عليه،إنه الحوار الهادف – الموظف – لتحقيق مصالح الإنسانية المشتركة عن طريق: التعارف وإشاعة قيم التسامح، وتبادل الخبرة والحكمة، والتعاون على البر، والانطلاق من خندق واحد لمواجهة أخطار عديدة تهدد الكيان الإنساني كله على اختلاف عقائد أهله وألوانهم ومصالحهم القريبة، أخطار مثل تلوث البيئة، الأسلحة النووية، المجاعات، التخلف، انهيار القيم الأخلاقية ... وغيرها[١] .

وقد يكون من المفيد هنا أن نشير إلى أن الصراع أو التدافع أو التداول أو الحوار الحضارى، سنة اجتماعية، من سنن الله تعالى وقوانينه، التى لا تتخلف، ولا تتبدل، كما أنها سنة فردية أيضًا، فالإنسان كفرد ليس خارجًا عن دائرة الصراع والتدافع الذاتى، فى الاختيار بين دوافع الخير، ونوازع الشر، فى نفسه، لأن فى ذلك تتحدد حرية الإنسان فى الاختيار، وتتميز كرامته، ويتبين فضله، والشر من لوازم الخير، وبضدها تتميز الأشياء.

فالصراع والتدافع هو سبيل الحيوية والنمو، والازدياد، وعلامة الحياة والاستمرار، ابتداء من الخلية، وانتهاءً بالحياة الحية ، وهو إحدى محركات الحياة الاجتماعية، وامتداد التاريخ البشرى، وله صوره المتعددة، من الحوار، والمفاكرة، والمثاقفة، والمناظرة، والقتال، والمواجهة، والمنافسة، والسباق، والمغالبة، كلها صور ومعارك، منها: المشروع المحكوم بضوابط ليست من وضع الإنسان، ومنها ما يستخدم وسائل غير مشروعة، وكل ذلك يقع ضمن دائرة الصراع الحضارى، الذى يندفع من عقائد وأنساق معرفية ورؤى قيمية، وأنماط حياتية وسلوكية تمتاز بخصوصيتها، وتسعى للبرهنة على أحقيتها، وإثبات وجودها، فهى أشبه ما تكون فى خصوصيتها ببصمات الأصابع، وسحن الوجوه، وملامح الشخصية، لا يمكن أن تتطابق، ذلك أن التطابق يعنى التوقف والموت[٢] .

والصراع بين الخير والشر، والعدل والظلم، والحب والحقد، والعفو والثأر، والإيثار

---

(١) أحمد فراج: مرجع سابق، ص١٩٩.

(٢) أحمد القديرى:الإسلام وصراع الحضارات، كتاب الأمة ، سلسلة، فصلية تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر ، العدد(٤٤)،ط١ ، مايو،١٩٩٥م، تقديم : عمر عبيد حسنة، صـ١٠، ١١.

والأثرة، والحق والباطل، وبعبارة أخرى: الصراع بين المعروف والمنكر، لا يتوقف إلا بتوقف الحياة . قال تعالى :﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ [الفرقان:٣١] ، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾[الأنعام :١١٢].

إنها ابتلاءات الحياة، قال تعالى:﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [المائدة: ٤٨] . فإبليس أبى السجود والطاعة لأمر الله، وتمرد منذ بدء الخليقة وقال:﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأعراف] ، فقال تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الحجر]. واستمرت رحلة الغواية والصراع، وكان لها جولات ممتدة فى تاريخ البشرية، أفرادًا وجماعات، وأخذت أشكالًا متنوعة، واستراحات، واسترخاءات، هى غالبًا ما تكون استعدادًا لجولات جديدة. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود]، وقال تعالى:﴿ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد:٤].

ولعل من مظاهر رحمة الله سبحانه وتعالى، هذا التدافع والاختلاف، الذى من خلاله يظهر الحق ، ويتقوى ، وبسببه تنجو الحقيقة من الدمار، والخير من الجفاف ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج: ٤٠] . وقال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [البقرة: ٢٥١] ، وقال تعالى:﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الرعد:١٧].

والذى يدرك سنة التدافع والصراع، وأطرافه وميادينه، ومساراته يصبح قادرًا على حسن تسخيره، والفقه بنتائجه، ويمتلك القدرة على المداخلة، والتحكم، ومغالبة سنة بسنة أو قدر بقدر، ويمتلك القدرة على الحركة فى كل الظروف وإيجاد مساحات لزرع

الحقيقة وتنميتها[١] ، ومن هنا ندرك بدقة مغزى ومعنى قول الرسول ﷺ : «... وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[٢]، وندرك النتائج العظيمة من نصرة الحق التى ترتبت على قدرة وحكمة الصحابى الجليل نعيم بن مسعود ﷺ فى غزوة الأحزاب، عندما رمت العرب المسلمين عن قوس واحدة، حيث تكالبت عليهم، وتحالفت: اليهودية، والوثنية، والقبلية، وابتلى المؤمنون هناك، وزلزلوا زلزالا شديدًا، حتى لقد بلغت القلوب الحناجر، وبدأت الظنون تتسرب إلى النفوس الضعيفة[٣]، وقال تعالى فى ذلك:﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١ ﴾ [الأحزاب] . فى هذه اللحظات الحاسمة وهذه الشدة الشديدة من المواجهة، أسلم نعيم بن مسعود، وجاء خفية إلى الرسول ﷺ، وقال فيما ترويه كتب التاريخ والسيرة: أسلمت، ولم يعلم أحد بإسلامى، فمرنى بما ترى، فقال له الرسول ﷺ:- بما معناه: «إنما أنت فينا رجل واحد،وإن الحرب خدعة، فخذل عنا ما استطعت» ، فكان ما كان من نعيم، من فهم، واستيعاب، وفقه لسنة التدافع وعوامله، ومداخله، وكان النصر بعد الشدة، وكان البلاء نعيمًا فى الوقت المناسب، وفاعليته، أعظم من جيش كامل، بخططه وعدده[٤] .

صحيح بأن المسلم يعتقد بأن النصر من عند الله، وهى حقيقة، يجب ألا تغادر نفسه، لكن صحيح أيضًا، أن هذا النصر أراده الله أن يتحقق من خلال أقدار وسنن وعزمات بشر، وأسباب ومسببات، وكم يحتاج المسلمون اليوم – فى حالات الحصار التى تفرض عليهم ويعانون منها أشد المعاناة – إلى نماذج ذكية، فقيهة بسنن وأقدار التدافع الحضارى، قادرة على دخول حلبة الصراع، بجدارة واقتدار، إلى درجة قد تمكن من إدارة الصراع، وتحقيق كسب أكبر للقضية الإسلامية[٥] .

فكم نحن بحاجة إلى نماذج من أمثال نعيم، قادرة على التحرك فى الوقت المناسب، وحسن استخدام المتاح، ذلك أن الإنسان المسلم، بمقدوره أن يحقق الكثير ، إذا أدرك

---

(١) أحمد القديرى: الإسلام وصراع الحضارات، مرجع سابق، ص١٣.
(٢) جزء من حديث أخرجه البخارى: كتاب (الجهاد والسير)، باب (إن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر)، جـ٣، ص١١١٤، رقم الحديث (٢٨٩٧).
(٣) أحمد القديرى: الإسلام وصراع الحضارات، مرجع سابق، ص١٣.
(٤) محمد بن جرير الطبرى: تاريخ الطبرى، جـ٢، ط١، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧، ص٩٦.
(٥) أحمد القديرى: الإسلام وصراع الحضارات، مرجع سابق، ص١٤٠.

إسلامه وعقيدته، وفقه المعادلة الاجتماعية، التى يعيشها.

ومن هنا ندرك كيف يمكن أن يكون الفرد أمة، وخاصة عند غياب الأمة.

ويقول تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [آل عمران] ، أى: أن العلم بسنن الله تعالى، من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن الكريم يحيل عليه فى مواضيع كثيرة، وقد دلنا على مآخذه على أحوال الأمم، إذ أمرنا أن نسير فى الأرض، لأجل اجتلائها، ومعرفة حقيقتها، والسنة كما هو معلوم: الطريقة المعتبرة، والسيرة الحميدة المتبعة، والقانون المطرد، الذى لا يتبدل ولا يتحول، قال تعالى:﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الأحزاب] ، فالحياة لم تخلق عبثًا، وإنما خضعت لسنن وقوانين، وأمر البشر فى اجتماعهم، وما يعرض فيه من الصراع والتدافع الحضارى، بين الحق والباطل، وما يتبع ذلك من الحرب، والنزال، والملك، والسيادة، والتداول الحضارى، يجرى على طرق قويمة، وقواعد ثابتة، فمن سار على سنن الله ظفر بالفوز، وإن كان ملحدًا أو وثنيًا، ومن تنكبها خسر، وإن كان حنيفًا مسلمًا[١] .

إننا اليوم فى أوطاننا، وخارج أوطاننا، نعانى من حرج الصدر تجاه الآخر، وتجاه الرأى الآخر، نعانى من سيادة مرحلة التدافع، وعدم رؤية الروزنة والنافذة التى ترتقى بنا إلى مرحلة التعارف، لا لشىء إلا لأننا لم نستنطق القرآن بالقدر الكافى، وهذه هى آلية الطرد إلى أعلى، نظرنا إلى القرآن بإعتباره مقدسًا، فطردناه نحو الرفوف فى حين أن القرآن جاء ليفهم ويتدبر[٢] . فالله سبحانه وتعالى يقول موبخًا البشر: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد :٢٤] ، إذ لا حجة للبشر ألا يتدبروا القرآن، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [القمر]. لكى نستنطقه ونستهدى به نحو التى هى أقوم كما قال سبحانه وتعالى عن هذا القرآن.

احترام وجود الآخر .. أم إلغاؤه ؟[٣]:

تتصاعد وتيرة العنف سواء منه الدينى أو العرقى، فى أماكن متفرقة من العالم ومنها العالم العربى، هذه الظاهرة نريد أن نتعمق فى دوافعها وجذورها من أجل تلافيها والعيش

(١) أحمد القديرى: الإسلام وصراع الحضارات، مرجع سابق، ص١٦.
(٢) محمد وجيه الصاوى: مرجع سابق، ص٢١٠.
(٣) محمد وجيه الصاوى: مرجع سابق، ص٢١١-٢١٢.

فى سلم وأمن وقبول للآخر. قال تعالى: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [المائدة]، وتحت أسطر هذه القصة المروية فى القرآن، يكمن مغزى فلسفى عميق لكيفية مواجهة المشاكل الخطيرة، والحلول لهذه المشاكل الإنسانية أثناء احتدام الصراع البشرى، دعنا نتأمل القصة كما جاءت فى القرآن الكريم لمزيد من الفهم.

قال تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِۚ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [المائدة].

يلاحظ أن: القرآن الكريم يستخدم أساليب قريبة للفهم الإنسانى، فهو يستخدم هنا القصة لينزل إلى الواقع وينتزع منه ما يريد؛ ونظرًا لأن الصراع البشرى له مسبباته ونتائجه التى تحكمه؛ لذا فإن النزول إلى (الواقع) لأخذ العينة منه ثم نقلها إلى معمل التاريخ له ما يبرره تمامًا، بل يشكل الطريق السليم لمعرفة مصدر الصراعات.

(الواقع) أكبر من النصوص؛ لأنه يشكل المصدر الذى يراه البشر جميعًا، ولأن الواقع هو النص مجسدًا، فى حين أن النصوص تتعلق بالخلفية الثقافية التى يحملها البشر، والتى بموجبها يفهمون النصوص ويتعاملون بها، ويختلفون بل ويتنازعون بل ويفتك بعضهم ببعض من أجل الخلافات فى وجهات النظر (لأقتلنك) وهم يواجهون النصوص.

وما حرب الخليج الأخيرة، إلا نموذج لعجز النصوص عن حل المشاكل، حينما شكلت المؤتمرات الإسلامية فى ساحتى الصراع المتنازعتين، واستخدمت النصوص لدعم موقف كل فريق،﴿ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [المؤمنون]، والذى حل المشكلة فى النهاية هو طرف خارجى، وكان حلها ليس استنادًا إلى النصوص ولا رجوعًا إليها.

بل لماذا نذهب بعيدًا، لنتذكر معركة (صفين) القديمة، حيث رفعت المصاحف على رؤوس الرماح ادعاءً للرغبة فى التحاكم إلى النصوص، وحلت بدون تدخل (فريق خارجى) ولم يكن الطرف الذى طلب التحاكم إلى النصوص بأنزه الطرفين ولا أتقاهما، ويعلمنا التاريخ أن التحاكم القديم إلى النصوص لم يحل المشكلة إن لم يكن قد زادها تعقيدًا.

وفى الحرب العراقية – الإيرانية تم توظيف الدين سياسيًا مرة أخرى، حيث اعتبر

العراق أنها معركة القادسية، فى الوقت الذى اعتبرت فيه من طرف الإيرانيين أنها معركة (كربلاء) ومات فى معركة القادسية – كربلاء قرابة ٦٥٠٠٠ إنسان، منهم ٤٥٠٠٠ إيرانى، ٢٠٠٠٠عراقى، أى ما يعادل سكان مدينة متوسطة الحجم.[1].

وفى الواقع فإن تجسيد النص على الأرض هو (الواقع) أى أن: (النص والواقع) يشكلان معادلة كما هو الحال فى علاقة المادة والطاقة، إلا أن المصدر هو دومًا الواقع، فى حين أن النص هو لغة التعبير عن الواقع، وفى هذه النقطة يحصل الخلاف البشرى أى فى تفسير الواقع، وإلا فإن جميع البشر يرون الشمس والقمر والسحاب كما يرون تساقط المياه وتبخر الماء وذوبان الشمع، كما يرون الخلية وولادة الأشياء وظاهرة الموت.وهذه النقطة هى رمز الإنسان من جهة كما هى رمز عذابه ومعاناته، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ ﴾ [البلد].

جدلية الإنسان إذًا هى فى كونه يختلف مع أخيه الإنسان فى تفسير الواقع، إلا أن صورة الاختلاف قد تكون رحمة ومصدر نمو واقترابًا متواصلا من الحقيقة النسبية، فى نفس الوقت الذى قد تتحول إلى مصدر صراع ضار يصعد إلى مستوى سفك الدماء وتصفية الآخر، كما هى فى القصة التى بين أيدينا.

والإشارة إلى ابنى آدم لا تعنى بالضرورة أولادًا معينين تاريخيًا، كما ذهب إلى ذلك العهد القديم وتحت أسماء بعينها هما قابيل وهابيل، فأولاد آدم هم رمز لبنى الإنسان وصراعهم – صراعاتهم – واهتم القرآن بتتبع أشكال الصراع البشرى منذ بداية فجر التاريخ البشرى.

إذن فى ضوء فكرة من هذا النوع يمكن فهم آيات صراع ولدَىْ آدم، التى هى صور الصراع البشرى الأولى، والتى مازالت تكرر نفسها فى صور شتى سواء فى صورة صراع شخصين ينتسبان لنفس المهنة أو صور الحروب الرهيبة بين الدول؛ لأن صورة الصراع الأولى البسيطة هى بذرة الصراع المشروع الأخير.

وإن الغرب – الحضارة الغربية – على مدى جيل واحد (٣٠ عامًا) من ١٩١٤م إلى ١٩٤٤م فجر– حربين عالميتين ، راح ضحية الأولى ثلاثون مليونًا من البشر، وراح ضحية

(١) محمد وجيه الصاوى: مرجع سابق ، ص٢١٣ .

الثانية سبعون مليونًا من البشر، وانتهت هذه الأخيرة بفاجعة نووية، مسحت من على الأرض مدينتين كاملتين، هما هيروشيما وناجازاكى باليابان. وهذه الأحداث ليست من عصر ما قبل التاريخ بل إن بعض (أبطالها) وضحاياها، ما يزالون يعيشون بيننا إلى اليوم[١].

والفكر المادى الغربى هو الذى أباد شعوبًا كاملة، كان آخرها شعب سكان أمريكا الأصليين، الملقبين بالهنود الحمر منذ عام ١٤٩٢م إلى أواسط هذا القرن العشرين، ومحاولة إبادة شعب فيتنام، ومحاولة إبادة ستالين لمخالفيه التى قدر عددها المؤتمر العشرون للحزب الشيوعى السوفييتى نفسه، بخمسة ملايين ضحية فى ثلوج سيبيريا[٢].

وبالرجوع إلى لفظة: ﴿ لأَقْتُلَنَّكَ ﴾ من الآية (٣١) من سورة المائدة، فهى تشير إلى تصعيد الصراع البشرى من مستوى الخلاف فى الآراء والمصالح إلى القتال والتصفية الجسدية، أى (إلغاء الطرف الآخر)، وهذا الأسلوب هو المقابل تمامًا للحوار، ومحاولة حل المشكلة بين الطرفين الإنسانيين بدون أن يحذف أحد الأطراف، وطبعًا هذا الحذف يعتمد إلغاء جدلية الوجود كلها، بحيث يمكن نقل هذا الإلغاء أو هذه الجدلية من مستوى فرد وفرد، إلى مستوى أمة حين يلغى الفرد إرادة الأمة من خلال النظام الفردى، لأن الأنظمة الديكتاتورية تعتمد إلغاء إرادة الأمة، وهى ثمرة خبيثة من الشجرة الخبيثة الأولى من الكلمة الخبيثة ﴿ لأَقْتُلَنَّكَ ﴾ قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [إبراهيم:٢٦].

فالآية القرآنية قارنت بين الكلمة الطيبة والشجرة الطيبة، وبين الكلمة الخبيثة والشجرة الخبيثة، بمعنى أن الكلمة الطيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء، فالمؤمن كلما قال: (لا إله إلا الله) صعدت إلى السماء ثم جاء خيرها ومنفعتها، والشجرة الخبيثة مثل شجرة الحنظل أى: تنمو إلى حد أن تصبح شجرة ثم تستأصل من جذورها وتقتلع من جذورها لعدم ثبات أصلها[٣]. إذن فمن طبيعة الكون - على ما يبدو - أن الفساد ينمو أيضًا ويكبر ويضخم ويقوى، وهو ما نشاهده بالفعل فى الحياة اليومية فى صور شتى، إلا أن هناك بنفس الوقت آلية خاصة فى الطبيعة تعتمد على تفتيت وهدم الباطل الضار

(١) أحمد القديرى: الإسلام وصراع الحضارات، مرجع سابق، ص٧٥.
(٢) المرجع نفسه: ص٧٥.
(٣) محمد على الصابونى: صفوة التفاسير "تفسير للقرآن الكريم"، جـ٢، دار الصابونى للطباعة و النشر والتوزيع، القاهرة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ص٨٩.

والسيئ، وهو قانون فى الطاقة والمادة والروح، فى الطبيعة والتاريخ والبنية النفسية والكيان الاجتماعى. قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد :١٧] . ويقول تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء :١٨] .

تحقيق معنى قبول الآخر [1]:

معنى قبول الآخر هو الموافقة والرضا، وهو أيضًا من المعانى المجردة التى تحتاج إلى ضبط واقعى وتمثيل حسى حتى تدرك وتتصور، ويصبح بإمكان العقل البشرى فهمها. وهذا لا يتأتى إلا ببيان الموضوعات التى ينصبُّ عليها القبول، أى: ببيان ما يمكن الموافقة عليه والرضا به.

والبديهى، أن قبول إنسان لآخر أو رفضه ينصبُّ على ما يجعل هذا الآخر مختلفًا عن ذاك الإنسان ومغايرًا له، ولا ينصب على ما يشترك فيه الاثنان ولا يتميز به أحدهما عن الآخر.

ذلك أن الإنسان من حيث الفطرة وأصل الخلقة هو الإنسان، لا فرق فيها بين شخص وآخر، ذكرًا كان أم أنثى، أسود كان أم أبيض، عربيًا كان أم أوروبيًا. فالغرائز والحاجات العضوية هى عند جميع البشر، فلا ترد هنا مسألة الآخر؛ لأن الآخر هو المقابل لك المختلف عنك بسمات وميزات جعلته بالنسبة لك كيانًا منفصلًا قائم الذات.

وعليه ، فإن قبول الآخر أو رفضه يكون فى الأمر الذى ميزه عن أخيه الإنسان، فهمه ما هو مكتسب كالأفكار، ومنه ما هو غير مكتسب ولا إرادة للبشر فى اختياره كالعرق واللون والجنس والنوع، فالإنسان يولد أوروبيًا أو أمريكيًا أو يولد أبيض أو أسود أو يولد ذكرًا أو أنثى دون إرادته واختياره.

والموافقة المرادة هنا إما أن تكون على وجود الآخر، أى: توافقه على حقه فى الوجود بوصفه الفردى أو الجماعى، وإما أن تكون على مطلب للآخر كالعيش معك وإما أن تكون على ما جعل الآخر فى نظرك آخر، أى توافق على تميزه عنك بأفكاره وعقيدته ولونه وعرقه وجنسه وغير ذلك.

والرضا المراد هنا: إما أن يكون رضا بالآخر بالرغم مما هو عليه، أى :ترضى بالآخر كما

---

(١) ياسين بن على: دراسة مقارنة بين سماحة الإسلام والغرب، مجلة المسلم المعاصر، العدد (١١٧)، السنة الثلاثون، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص١٠-١١.

هو بسماته التى ميزته عنك، وإما أن ترضى له ما هو عليه، وإما أن ترضى عما هو عليه.

هذا هو معنى قبول الآخر، وهذا هو المراد منه المتبادر إلى الذهن حيث بحث المسألة، فما هو حكم الإسلام فى هذا؟ وما هى المعانى التى اعتبرها الإسلام؟ وما هى المعانى التى لم يعتبرها؟ والجواب على هذا يقتضى منا تناول الآتى:

قبول من خالفك فى العرق واللون:

لم يعتبر الإسلام المخالفة فى العرق واللون بين البشر فى أى شىء ، فكل الناس عند الله عز وجل، وفى نظر نظام الإسلام وقانونه سواسية، لا فرق بين عربى وعجمى، أو بين تركى وأوروبى، أو بين أسود وأبيض، أو بين أصفر وأحمر إلا بالتقوى والعمل الصالح، قال تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات : ١٣] ، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الروم] .

وقد أرسل الله سبحانه وتعالى الرسول ﷺ إلى الناس كافة، رحمة للعالمين، فقال سبحانه:﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء] .

وقد دعا النبى ﷺ الناس جميعًا إلى الإسلام، فدخلوا فيه أفواجًا، دخل فيه سلمان الفارسى، وكان من الصحابة الأولين، وكان من المقربين من نبى الرحمة ﷺ، حتى قال فيه النبى ﷺ فيما يروى عنه: «سلمان منا آل البيت»[1] ، ودخل فيه بلال الحبشى الأسود ،وكان من الأولين ومن المقربين، وهو مؤذن الرسول ﷺ وإمام المؤذنين، ودخل فيه أبو عبد الله ابن سلام اليهودى، وكان سيدًا من سادات المدينة.

فالتميز العنصرى القائم على العرق واللون حرمه الإسلام، واعتبره عصبية جاهلية منتنة.

فعن جبير بن مطعم أن رسول الله ﷺ قال: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية،وليس منا من مات على عصبية»[2] . وقال ﷺ : «من قتل تحت راية عمية،

---

(١) الطبرانى (٦ / ٢١٢) (٦٠٤٠) ، وضعفه الألبانى فى ضعيف الجامع .

(٢) أخرجه أبو داود: ك (السنة) ب (التفاخر بالأحساب) ٤/ ٣٣١ رقم (٥١٢١) طبعة: دار الفكر – بيروت.

يدعو عصبية، أو ينصر عصبية، فقتله جاهلية"[١].

أما فى الغرب، فإنه وإن كان جملة كبيرة من القوانين التى تمنع التمييز وتقاومه، إلا أنها لم تلامس عقلية الكثيرين من الغربيين ونفسيتهم، فحوادث التمييز العنصرى القائم على العرق واللون أكثر من أن تعد فى المجتمع الغربى، وسجون الولايات المتحدة، وفرنسا، ونشأة الأحزاب القومية فى أوربا أكبر شاهد على ذلك.

فنجاح الإسلام فى إذابة الفروق، فرق العرق واللون فى المجتمع الإسلامى يعود إلى إيمان معتنقيه بأن الحق من رب العالمين، وأن التمييز حرام يعاقب عليه الله يوم القيامة. فعن الرسول ﷺ، أنه قال: « كلكم من آدم، وآدم من تراب»[٢]، فلا فرق بين البشر إلا بالتقوى.

وأما فشل الغرب فى القضاء على النزعة العنصرية فى مجتمعه، فيعود إلى أن القانون لا يلتزم به قناعة فيه، وإيمانًا بأنه الحق، إنما خوفًا من العقاب الدنيوى، لذلك فإن الكثيرين فى الغرب يبطنون التميز ويعتقدون أفضليتهم على الآخرين لمجرد كونهم ولدوا بيضًا.

قبول من خالفك فى الجنس (النوع):

إن ما يسمى بقضية المرأة، من القضايا التى يعتمدها الغرب فى نشر حضارته، ونقض حضارة الآخرين، وعلى وجه الخصوص الحضارة الإسلامية، فالغرب يدعى أنه يحترم المرأة ويكرمها، فتبنى فكرة تحريرها، ونادى بحقها فى الحياة والمجتمع وطالب بمساواتها بالرجل. ولقد خفى عن الغرب، أن الدعوة لتحرير المرأة اعتراف باستعباده لها، والدعوة لإعطائها حقوقها اعتراف بهضمه لحقوقها، والمطالبة بمساواتها بالرجل اعتراف بأنها ناقصة عنده، نعم فحينما تبنى الغرب مثل هذه الأفكار فقد صرح ضمنًا بأنه مقصر فى حق المرأة ومضيع لحقوقها، وحينما تنص الدساتير الغربية على تمتع الرجال والنساء بحقوق متساوية، فإنها تفضح حقيقة وضع المرأة فى الغرب – المجتمعات الغربية – لأن تقنين المساواة فى الحقوق مع تخصيص كل نوع بالذكر دليل على التفرقة بينهما، فلو كانت هناك مساواة حقيقية بين الرجل والمرأة فى الغرب لاكتفى المشرّع الغربى بقوله فى الدستور: «جميع الناس متساوون أمام القانون ويتمتعون بحقوق متساوية» لكن وجود النظرة

(١) أخرجه مسلم: ك (الإمارة)، ب (وجوب ملازمة جماعة المسلمين) ٣/ ١٤٧٨ رقم (١٨٥٠).
(٢) أخرجه الترمذى: ك (المناقب)، ب (فى فضل الشام واليمن) ٥/ ٧٣٥ حديث رقم (٣٩٥٦).

الدونية إلى المرأة دفعت المشرّع الغربى إلى التنصيص على المساواة مع تخصيص النوعين بالذكر [١].

وقد يظن بعض الناس، أن الغرب حقق ما يدعيه من مساواة بين الرجل والمرأة وأنه ضمن للمرأة، حقها كله ،غير أن هذا الظن ليس فى محله، فلا زال الغرب منشغلًا بالمسألة ذاتها التى مضى عليها عقود من الزمن، وها هو البرلمان الألمانى – مثلًا – يعدل فى ٣٠ يونيو ١٩٩٤م المادة الثالثة من دستوره فينص على ما يلى: "تقوم الدولة بتشجيع ودعم التطبيق الفعلى للمساواة بين النساء والرجال، وتعمل على إزالة المساوئ الموجودة"[٢].

وهذا التعديل الدستورى، لا يدل على مجرد اعتراف فقط بعدم تحقيق المساواة بين النساء والرجال،بل هو بمثابة التنصيص الدستورى على ذلك، فإذا نص الدستور فى سنة ١٩٩٤م، على العمل على التطبيق الفعلى للمساواة، فإنه ينص ضمنًا على عدم وجودها.

والأصل فى فكرة المساواة بين النساء والرجال التى يتبناها الغرب، الوضع المشين الذى كانت عليه المرأة فى المجتمع الغربى، ذلك أن المرأة كانت مهضومة الحقوق، معزولة عن حركة المجتمع، لا يلتفت إليها ولا يلقى لها بالٌ، فلما طالبت بحقوقها، اتخذت فكرة المساواة كطريق لتحقيق مطالبها، ونودى بالتسامح معها.

فلننظر إلى المرأة عند اليونانيين القدامى – وهم أكثر شعوب الدول القديمة تمدنًا وأخذًا بأسباب الحضارة – مسلوبة الحرية، معدومة المكانة فى كل ما يتصل بالحقوق الشرعية، بل إن فيلسوفًا كبيرًا مثل أرسطو (ت٣٢٢ ق.م) كان يعيب على أهل أسبرطة أنهم يتساهلون مع نساء عشيراتهم ويمنحونهن بعض الحقوق التى تفوق أقدراهن[٣]، وكانت المرأة فى التاريخ اليونانى الأول قعيدة البيت، محصنة عفيفة، لكنها محرومة من الثقافة، لا تسهم فى الحياة العامة بقليل ولا كثير، تنحصر مهمتها فى الحياة: تحقيق مطالب الزوج وإنجاب الأطفال، وهى مع ذلك مهينة ذليلة، "وإذا وضعت ولدًا دميمًا قضوا عليها"[٤]، وأثر عن أفلاطون أنه: دعى إلى شيوع النساء، وإلغاء نظام الأسرة[٥]. ولم تكن المرأة عند الرومان

---

(١) ياسين بن على: مرجع سابق، ص١٤.

(٢) مجلة ألمانيا DEUTSCHLAND العدد (٥)، شهر (١٠)، ١٩٩٥، صـ١٤، نقلًا عن ياسين بن على: مرجع سابق، ص١٥.

(٣) فوزية الزفزاف: مكانة المرأة فى الإسلام، مجلة الأزهر، جـ٤، السنة (٧٧)، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، القاهرة، ص٥٨٧.

(٤) غوستاف لوبون: حضارة العرب، تعريب: عادل زعيتر، ط٣، دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م،ص٤٩٠.

(٥) أحمد طه محمد: المرأة المصرية بين الماضى والحاضر، مطبعة دار التأليف، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص٢٦.

بأحسن حالًا من أختها عند اليونان، فقد كانت المرأة تتخذ عشيقة – اتخاذ العشيقات الكثيرات العدد – والتى تعترف به الدولة رسميًا. والنتيجة الحتمية لذلك كانت ضياع المرأة ثم انزلاقها إلى مهاوى البيع والشراء[١].

أما المرأة عند اليهود، فكانت تُعد فى منزلة خادم، وكان الأب يسمح له أن يبيع ابنته وهى صغيرة، ويتسلم ثمنها. وكانت الفتاة اليهودية لا ترث شيئًا من أبيها إلا فى حالة واحدة وهى: إذا لم يترك الأب أحدًا من الأبناء بعد وفاته، فإذا كان له أبناء حرمت ابنته من الميراث[٢].

وكتب اليهود المقدسة تعتبر المرأة متعة جسدية، يقول التلمود – وهو الكتاب الثانى من كتب اليهود بعد التوراة: إن المرأة من غير بنى إسرائيل ليست إلا بهيمة، لذلك فالزنى بها لا يعتبر جريمة لأنها من نسل الحيوانات. والغريب فى ذلك أن شهادة مائة امرأة تعادل شهادة رجل واحد عندهم[٣].

ولم تكن المرأة عند الصينيين بأوفر حظًا من غيرها ممن سبقوها، فقد كان من حق الزوج أن يسلب كل حقوق زوجته ويبيعها كجارية، كما كان يحرم على الأرملة الزواج بعد وفاة زوجها، وكان الصينيون ينظرون إلى المرأة على أنها معتوهة، لا يمكنها قضاء أى شىء من شؤونها إلا بتوجيه من الرجل[٤].

وكانت المرأة فى المسيحية حتى نهاية القرن الثامن عشر تعتبر ملكًا للزوج، يمكن أن تباع، مأمورة بطاعة زوجها، ونظر إليها باعتبارها فخًا نصبه الشيطان لتدمير الروح، ومع هذا فقد نظر إليها على أنها مساوية للرجل فى الناحية الروحية والدينية.

والإقطاع عمل على تحرير المرأة ودخولها ميدان العمل، وقال القديس "توماس الإكوينى" إن المرأة يجب أن تكون خاضعة للرجل وهذا بحكم ضعفها الطبيعى، وأن الأبناء يجب أن يحبوا آباءهم أكثر من أمهاتهم. وقد دخلت المرأة مجال الطب فى العصور الوسطى وبخاصة مجال التمريض، وعلى هذا فقد ساعدت هذه النظرة للمرأة على كبوتها،

---

(١) فوزية العشماوى: الشخصية القانونية للمرأة المسلمة وآثارها على المجتمع، المؤتمر العام السابع عشر للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، المحور الرابع: "نظرة الإسلام إلى المرأة"، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص١.

(٢) محمد عطية الإبراشى: عظمة الإسلام، جـ٢، ص١٨٣.

(٣) إبراهيم أبو محمد: تكريم الإسلام للمرأة بين رؤيتين، المؤتمر العام السابع عشر للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مرجع سابق، ص٣٦.

(٤) إبراهيم أبو محمد: مرجع سابق، ص٣٥.

لذلك لم تنتج أوربا امرأة ذات عظمة عقلية أو اشتهرت لعقليتها الكبيرة.[١].

وفى ظل المسيحية كانت المرأة طبقًا للقديس ترتوليان: "مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان" ،وفى القرن الخامس الميلادى قرر مجمع ماكون بعد دراسة؟ مسألة المرأة وهل هى مجرد جسم لا روح فيه أم لها روح؟ وبعد دخول أوروبا فى الدين المسيحى ظلت الشعوب الأوربية تشكك فى طبيعة المرأة وتعتبرها كائنًا مختلفًا عن الرجل، فقد عقد الفرنسيون فى القرن السادس الميلادى مؤتمرًا عام ٥٨٦م لدراسة قضية المرأة، وهل هى إنسان أم غير إنسان؟ وخلصوا إلى نتيجة: "أن المرأة إنسان خلقت لخدمة الرجل فحسب". وبالرغم من التقدم الذى عرفته فرنسا فى عصر النهضة وبعد الثورة الفرنسية إلا أن القانون الفرنسى ظل يعتبر المرأة قاصرًا، وقد نص قانون نابليون على أن المرأة: "ليست أهلًا للتعاقد دون رضا الوصى عليها إن كانت غير متزوجة، أو الزوج إن كانت متزوجة"، ونص هذا القانون على أن القاصرين هم: "الصبى والمجنون والمرأة"، وظل قانون نابليون معمولًا به فى فرنسا وفى كثير من الدول الأوروبية حتى عام ١٩٣٨م، حيث عدل هذا القانون فى فرنسا، واعتبر المرأة الفرنسية ذات شخصية قانونية فيما عدا بعض القيود على المرأة المتزوجة التى لا تزال حتى الآن تخضع لزوجها فى كثير من المعاملات المالية، خاصة إذا كان نظام الزوجية هو نظام توحيد الأموال بين الزوجين، وتعتبر المرأة المتزوجة مسؤولة عن ديون الأسرة وديون زوجها حتى الآن فى فرنسا[٢].

ولقد خلق الله تعالى الإنسان - امرأة ورجلًا - فى فطرة معينة تمتاز عن الحيوان، فالمرأة إنسان، والرجل إنسان، ولا يختلف أحدهما عن الآخر فى الإنسانية، ولا يمتاز أحدهما عن الآخر فى شىء من هذه الإنسانية، وجعل فى كل منهما قوة التفكير ،وهى قوة التفكير نفسها الموجودة فى الآخر، فالعقل الموجود عند الرجل هو العقل نفسه الموجود عند المرأة إذ خلقه الله عقلًا للإنسان، وليس عقلًا للرجل أو المرأة. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء : ٧٠].

وحين جاء الإسلام بالتكاليف الشرعية التى كلف بها المرأة والرجل، وحين بين الأحكام الشرعية التى تعالج أفعال كل منهما، لم ينظر إلى مسألة المساواة أو المفاضلة بينهما

---

(١) محمد أحمد العدوى وآخرون: محاضرات فى تاريخ التربية ونظام التعليم فى مصر، جـ١، كلية التربية، جامعة الزقازيق، ١٩٩٨، ص١٢٩.

(٢) فوزية العشماوى: الشخصية القانونية للمرأة المسلمة وأثرها على المجتمع، مرجع سابق، ص٢.

أية نظرة، ولم يراعها أية مراعاة. فالإسلام جعل لكل من الرجل والمرأة حقوقًا وواجبات، وهذه الحقوق والواجبات تتعلق بمصالحهما، ومن هنا نجد الإسلام لم يفرق فى دعوة الإنسان إلى الإيمان بين الرجل والمرأة، وجعل التكاليف المتعلقة بالعبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج واحدة من حيث التكاليف، وجعل أحكام المعاملات من بيع وإجارة ووكالة وغير ذلك واحدة للرجال والنساء، وأوجب التعليم والتعلم للرجال والنساء، ومن ثم شرع الله تعالى الأحكام المتعلقة بالإنسان – ذكرًا و أنثى – واحدة ، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل : ٩٧].

فالإسلام أنقذ المرأة من كل المظالم، وعاملها معاملة كلها إنصاف، واحترام ومكانة، وإجلال. ولم تعط المرأة حقها – وهى بنت أو زوجة أو أم – إلا فى الإسلام، فأعطيت الحق فى الحياة، والحق فى الميراث، والحق فى التملك، والحق فى التعليم، والحق فى الشهادة، ... ومن ثم، فنظرة الإسلام للمرأة كانت مغايرة تمامًا لنظرة الفلسفات الوضعية لها، فقد رأينا فيما سبق أن المرأة لم تكن تتمتع بنظرة محترمة وكانت مكانتها الاجتماعية على قدر كبير من الدونية، فكانت عند اليهود دورة للروح فى حياة شريرة، وعند اليونان ظلًا للرجل ومجرد تابع له ، ولا تملك من أمرها شيئًا، ونفس الشىء عند الرومان، وفى المسيحية كانت فخًا نصبه الشيطان للرجل، وأنها سلاح إبليس للفتنة والإغراء، وفى أوروبا هضم القانون الأوربى كل حقوق المرأة.

كما أن الإسلام برأ المرأة من اللعنة التى ألصقها بها أتباع كل من اليهودية والمسيحية، فقد استخدم القرآن الكريم فى سرد وقائع خروج آدم وحواء من الجنة صيغة المثنى، وجعل مسئولية العصيان مشتركة بينهما، ولم يشر القرآن من قريب أو بعيد إلى أن حواء أغوت آدم وأخرجته من الجنة، فقد جاءت الآية الكريمة تبرئ حواء من هذه التهمة فى قوله تعالى: ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ [البقرة :٣٦].

كما نجد نفس صيغة المثنى حين تابا إلى الله واعترفا بذنبهما معًا وطلبا الغفران: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف] .

قبول من خالفك فى الفكر:

إن الاختلاف بين البشر طبيعى، فلكل منهم عقيدته، ونظامه، ودينه، ونمط عيشته،

ووجهة نظره، ومقياس أعماله والأفكار السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك، فمن الصعب - إن لم نقل من المستحيل- أن يجتمع البشر قاطبة على رأى واحد[١]، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ [هود] .

لذلك فالإسلام يقر بوجود هذا الاختلاف بين البشر فى عقائدهم وأفكارهم وأديانهم، ولا يرى إمكانية جمع الناس على فكر واحد، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣ ﴾ [يوسف]. وقال تعالى:﴿ الٓمٓرٰ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١ ﴾ [الرعد].

هذا هو واقع البشرية، وواقع اختلافهم فى الفكر الذى لا يمكن نكرانه أو تحاشيه. والسؤال هو: ما هى الأحكام المترتبة على هذا الواقع؟ وكيف يتعامل الإسلام معه؟ والجواب على هذا فى النقاط التالية:

١-إن الإسلام وإن أقر باختلاف الفكر بين البشر، أى اعترف بوجوده باعتباره واقعًا قائمًا على الذات، لا يُمكن نكرانه، ولا يرضى عنه ولا يرضى به. فكل فكر غير فكر الإسلام، وغير الفكر القائم على عقيدته، يعتبر فى نظر الإسلام باطلًا لا حق فيه، قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران] ، وقال سبحانه: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٨٥ ﴾ [آل عمران]. وقال تعالى: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٣٢ ﴾ [يونس].

وقال الرسول ﷺ: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»[٢] .

ولا يفوتنا فى هذا السياق الإشارة إلى نقطة مهمة ألا وهى: الانتفاع بالفكر الغربى ما لم يكن مناقضًا لعقيدة الإسلام ومضادًا لها. فعند الغرب أمور لنا أن ننتفع بها ، بل يجب أن ننتفع بها ،كالأمور العلمية والتكنولوجية.

٢-إن الإسلام - وإن أقر اختلاف الفكر بين البشر- فهو من منطلق الرحمة بهم، وإرادة الخير لهم، شرع وجوب دعوتهم إلى الإيمان به، عقيدة ونظامًا، وترك ما يعبدون

(١) ياسين بن على: مرجع سابق، ص١٨.
(٢) رواه مسلم.

ويعتقدون، ورتب على ذلك فضلًا كبيرًا، وأجرًا عظيمًا[١] قال الرسول ﷺ: «فو الله لأن يهدى الله بك رجلًا واحدًا خير لك من أن يكون لك حُمر النعم»[٢].

وقد أخرج البخارى فى صحيحه حادثة تبين أن المقصد من الدعوة الخير للبشر، والرحمة بهم. فعن أنس ﷺ قال: كان غلام يهودى يخدم النبى ﷺ فمرض، فأتاه النبى ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: «أسلم». فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم، فأسلم، فخرج النبى ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذى أنقذه من النار».

فالإسلام أراد أن يكون دخول غير المسلمين فيه عن قناعة ورضا تأمينًا بأنه الحق المنزل من رب العباد جل جلاله، قال سبحانه: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة].

وقال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل].

ومن أروع الأحكام التى شرعها الإسلام مصداقًا لرحمته وإرادته الخير بالبشرية كلها، حكم (جوار العلم)، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ [التوبة].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس].

٣- الإسلام يقبل واقع الاختلاف فى الفكر بين البشر، وعدم إكراههم على التخلى عن عقيدتهم ودينهم، ومن ثم فالإسلام يقبل مطلب الآخرين ممن هم على غير عقيدته ودينه بالعيش فى مجتمعه ودولته وبين المسلمين فى حمايتهم ورعايتهم، فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين.

وقد يقبل الإسلام أن يعيش الآخر بين المسلمين دون أن يتخلى عن دينه، ودون أن

---

(١) ياسين بن على: مرجع سابق، ص ٢٠.

(٢) أخرجه مسلم ك (الفضائل) ب (فى فضائل على بن أبى طالب ﷺ) ٤/ ١٨٧٢ حديث رقم (٢٤٠٦).

يلزمه بذلك أو يشترط عليه ذلك، فهو بذلك يحافظ على خصوصيته، ويصون له كينونته المتميزة، أى يضمن له بقاءه آخرًا كما شاء لنفسه ذاك. وكل هذا موجود فى صحيفة المدينة "ميثاق المدينة".

إن البشرية لم تعرف أعظم من المسلمين سماحة، يوفون بالعهد، ويصونون الأمان، ويحفظون الجوار، ويحسنون لمن اختار العيش بينهم.

الجهاد فى الإسلام:

الجهاد فى الإسلام هو حرب مشروعة عند كل العقلاء من بنى البشر، وهى من أنقى أنواع الحروب من جميع الجهات [١].

١-من ناحية الهدف. ٢-من ناحية الأسلوب.

٣-من ناحية الشروط والضوابط. ٤- من ناحية الإنهاء والإيقاف.

٥-من ناحية الآثار أو ما يترتب على هذه الحرب من نتائج.

وهذا الأمر واضح تمام الوضوح فى جانبى التنظير والتطبيق فى دين الإسلام وعند المسلمين، وبالرغم من الوضوح الشديد لهذه الحقيقة، إلا أن التعصب والتجاهل لحقيقة الدين الإسلامى الحنيف، والإصرار على جعله طرفًا فى صراع وموضوعًا للمحاربة، أحدث لبسًا شديدًا فى هذا المفهوم - مفهوم الجهاد - عند المسلمين، حتى شاع أن الإسلام قد انتشر بالسيف، وأنه يدعو إلى الحرب وإلى العنف، ويكفى الرد على هذه الحالة من الافتراء، ما أمر الله به من العدل والإنصاف، وعدم خلط الأوراق، والبحث عن الحقيقة كما هى، وعدم الافتراء على الآخرين[٢]، حيث قال سبحانه: ﴿ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [آل عمران] .

والحرب ظاهرة طبيعية شهدتها كل المجتمعات، والدول، والأزمان. ويقول كاتب غربى كبير "بكيت دى جو فينيل": "إن الحرب تبدو وكأنها أمر عارض فى نظر ذاك الذى يكتفى بتأمل الزمن الذى يعيش فيه، إنما بالنسبة للإنسان الذى يعيش متأملًا مسار الأزمان

---

(١) على جمعة: الجهاد فى الإسلام دراسة تحليلية، بحث مقدم للمؤتمر العام الرابع عشر للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بعنوان: "حقيقة الإسلام فى عالم متغير"، مرجع سابق، ص٦٩٣.

(٢) المرجع السابق نفسه: ص٦٩٤.

جميعًا فسيجدها النشاط الأساسى الذى تمارسه الدول"، والأمر غير الطبيعى هو ما يفعله الغرب بقيادة أمريكا من عقد تحالفات، ومحاولة جر العالم كله للدخول فى الحرب، وهو أمر قد يسبب حربًا عالمية ثالثة لا تتحملها البشرية التى عانت ويلات الأولى والثانية.

إن الغرب يهاجم الإسلام، لتضمنه الجهاد الهجومى، حتى كرَّه البشر فى الإسلام، وأصبح هذا الدين الحنيف السمح فى نظر العالم صنو الإرهاب والوحشية ،ولقد تجاهل العالم أنه فى الوقت الذى تهاجم فيه فكرة الجهاد فى الإسلام تطور أمريكا أسلحة الدمار الشامل وتحتل أرض المسلمين، وفى الوقت الذى يهاجم فيه القرآن لاحتوائه على آيات القتال ينشد الفرنسيون لامارسياز Lamarseillaise يدعون فيها للقتال ويتمنون فيها سبع مرات أن يتدفق دم غير طاهر فى ساحتهم: [١] .

Aux armes citoyens !

Formez vos bataillons !

Marchons, Marchons

Qu`un sang impur Abreve nos sillons !

والحقيقة أن الغرب يريد من المسلمين نزع السلاح، وتسليم البلاد والعباد له،فحتى القتال من أجل تحرير الأرض يعتبره الغرب من المسلمين إرهابًا، فقتال الشيشان للروس إرهاب. وقتال المسلمين أمريكا فى أفغانستان إرهاب. وقتال المسلمين الأمريكان والإنجليز فى العراق إرهاب. وقتال المسلمين اليهود الصهاينة فى فلسطين إرهاب!! وقتال المسلمين الهندوس فى كشمير إرهاب.

فماذا بقى إذن للمسلمين من قتال لا يسمى فى عرف الغرب بالإرهاب، لم يبق إلا قتالهم لبعضهم بعضًا.

قال لورنس كورب، مساعد وزير الدفاع فى عهد الرئيس الأمريكى السابق ريجان أثناء حرب الخليج فى سنة ١٩٩٤: "لو كانت الكويت تنتج الجزر لما اكترثنا بالأمر" ، وقال هاليداى: "ماذا يريد الناس فى الغرب؟ الإجابة بسيطة، إنهم يريدون المال. وهذا ما تمثله العولمة، إنها تعنى تحويل العالم أجمع إلى سوق هائلة ومعمل إنتاج صناعى"[٢] .

---

(١) ياسين بن على: مرجع سابق، ص٢٨-٢٩.
(٢) المرجع نفسه: ص ٢٩ .

والإسلام حين شرع القتال ضبطه بضوابط كثيرة، فيها السماحة والرحمة ما بين حقيقة القصد منه الذى هو خير البشرية وليس استعمارها ونهب خيراتها.

وهناك آيات قرآنية وأحاديث نبوية تحدثت عن هذه القضية، كان لها أهداف وشروط وضوابط وأساليب وآثار مترتبة على ذلك، منها ما يلى:

أولًا: القرآن الكريم:

١- ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [البقرة] .

٢-﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ [البقرة].

٣- ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ [آل عمران:١٩٥] .

٤- ﴿ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ ﴾ [النساء] .

٥- ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾

[الأنفال] .

ثانيًا: الأحاديث النبوية الشريفة:

عن سلمان بن بريدة عن أبيه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرًا على جيش أو سرية، أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا. ثم قال: "اغزوا باسم الله، وفى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال، أو خلال: فأيتهن ما أجابوك، فاقبل منهم ،وكف عنهم، ثم أدعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك، فاقبل منهم ،وكف عنهم ، ثم أدعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك، فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون

كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين، ولا يكون لهم فى الغنيمة والفيء شيء. إلا من يجاهدون مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك، فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا حاصرت حصنًا، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ...."[1].

عن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: إنى أريد الجهاد فقال: «أحَي والداك؟» قال: نعم. قال: « ففيهما مجاهد»[2].

ويتضح من هذه الآيات والأحاديث أن هدف الحرب فى الإسلام يتمثل فى[3]:

أ- رد العدوان والدفاع عن النفس.

ب- الدعوة إلى الله، وإتاحة الفرصة للضعفاء الذين يريدون اعتناقها.

ج- المطالبة بالحقوق المسلوبة.

د- نصرة الحق والعدل.

ومن شروط وضوابط الحرب:

أ -لا قتال إلا مع المقاتلين، ولا عدوان على المدنيين.

ب- إذا جنحوا للسلم وانتهوا عن القتال فلا عدوان إلا على الظالمين.

جـ - المحافظة على الأسرى ومعاملتهم المعاملة الحسنة التى تليق بالإنسان.

د- المحافظة على الحرية الدينية لأصحاب الصوامع والرهبان وعدم التعرض لهم.

لذلك فإن الجيوش الإسلامية عبر تاريخها، لم تغتصب النساء، ولم تقتل الأطفال، والنساء، والشيوخ، ولم تحرق البلاد كما يفعل الغرب اليوم.

أمثلة من تسامح الإسلام والمسلمين[4]:

أ- لقد ضرب صلاح الدين الأيوبى، المسلم الكردى، مثلاً عظيمًا فى سماحة الإسلام

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه: ك (الجهاد والسير) ب (تأمير الإمام الأمراء على البعوث) ٣/ ١٣٥٦، رقم (١٧٣١).
(٢) أخرجه البخارى: ك (الجهاد والسير) ب (الجهاد بإذن الأبوين) ٣/ ١٠٩٤ رقم (٢٨٤٢).
(٣) على جمعة: الجهاد فى الإسلام دراسة تحليلة، مرجع سابق، ص٧٠٠.
(٤) مصطفى سيسى: موقف الإسلام من غير المسلمين فى المجتمعات الإسلامية، بحث مقدم للمؤتمر العام التاسع للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة مرجع سابق، ص٢٨٦-٢٨٧.

obeikandl.com

وقوته وعزته، وهذا رغم ما فعله الفرنجة الغربيون فى بيت المقدس من قتل، واغتصاب، وحرق، وتدمير.

ب- طلب العادل من أخيه صلاح الدين افتداء ألف أسير على سبيل المكافأة عن خدماته له، فوهبهم له صلاح الدين، فأطلق العادل على الفور سراحهم، كما طلب البطريرك (هرقل) إلى صلاح الدين أن يشفعه فى عدد من الأرقاء حتى يحررهم من الأسر ويعتقهم، فوهب له سبعمائة أسير فأطلق سراحهم، كما أطلق خمسمائة آخرين تكريمًا (لبالیان) ، وأعلن أنه سوف يطلق سراح كل شيخ وامرأة، فلما أقبلت نساء الفرنجة اللائى افتدين أنفسهن، وقد امتلأت عيونهن بالدموع، رق لهن قلبه وأمر بإطلاق سراح أزواجهن، وآبائهن وأبنائهن.

جـ- سمح (الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمى) للنصارى الذين أسلموا كرها على عهد أبيه (الحاكم بأمر الله) أن يرجعوا إلى حظيرة دينهم القديم، كما أعاد هو نفسه إعمار كنيسة القيامة.

د- كان علماء المسلمين يجتمعون فى أروقة المسجد الأقصى المبارك وكانت تدور بينهم وبين اليهود والنصارى حوارات ونقاشات ومناظرات علمية تدور أغلبها فى علوم الكلام وأصول الفقه والخلاف ، وكانت القدس - بحكم موقعها المتوسط بين الشرق والغرب - من البلاد التى تجمع فى التعليم بين الطريقة (القيروانية) التى تقوم على التنظير والتمثيل والطريقة (العراقية) التى تقوم على طلب الدليل.

هـ-سمح السلطان (محمود الثانى) لطائفة اللاتين بتوسيع ديرهم وإضافة غرف جديدة إليه ،كما أذن لهم بتعمير القسم الذى يخصهم من كنيسة القيامة.

أنصف (إبراهيم باشا) شكاية تقدم بها سكان القدس من جباة الضرائب الذين كانوا يجبونها من الزوار، فأمسك بالمعينين ونفاهم إلى عكا والشام.

إن هذه الروح السمحة، والأخلاق النبيلة هى أخلاق الإسلام وآدابه فى التعامل مع البشر فى السلم والحرب، وهذا من الشواهد العظيمة الدالة على سماحة الإسلام مع المخالفين من أهل الأديان الأخرى، ولو كانوا خارج المجتمع الإسلامى، مما يدل على أن من كانوا داخله أولى بالإحسان.

ومن مظاهر السماحة (الإحسان) إليهم ما يلى:

أ- أبلغ مثال على ذلك عفو الرسول ﷺ عن أهل مكة يوم الفتح وقد تمكن منهم بعد إساءاتهم له نحو عشرين سنة، لقى منهم فيها هو وأصحابه ﷺ ألوان العنف والمشقة، وصنوف العذاب والاضطهاد، وأنواع المحاربة، والمطاردة والقتل، والتشريد، ومع ذلك كله يعفو عنهم ﷺ عفوًا عامًا فى موقف فريد تعجز أمم الأرض وقادة العالم فى القديم والحديث عن مثله، ولو على سبيل المحاكاة والتقليد[١].

هل نقل التاريخ مثل ذلك؟ يدخل قائدًا وأتباعه بلدًا ما، منتصرين انتصارا تامًا، ويستحضر الأتباع عناء سنين متطاولة من الغربة والتشريد والقتل والتعذيب إلى غير ذلك، وكثير منهم متعطش للانتقام وعدوهم فى غاية الاستكانة والاستسلام، ومع ذلك يعفو القائد العام عفوًا تامًا بكلمة واحدة فلا يسع الأتباع إلا التسليم والانقياد.

ب- ويوم الحديبية – قرية متوسطة، سميت ببئر يسمى بئر الحديبية، تعرف اليوم باسم: الشُميس، وهى غرب مكة خارجة عن حدود الحرم، وبينها وبين المسجد قرابة اثنين وعشرين كيلو، واختلفوا فى يائها منهم من شددها ومنهم من خففها – يهبط ثمانون رجلًا من أهل مكة على النبى ﷺ وأصحابه من جهة جبل النعيم – موضع بمكة فى الحل – ليأخذوهم على غرة، فيظفر بهم المسلمون، ويسألهم رسول الله ﷺ: "هل جئتم فى عهد أحد، أو هل جعل لكم أحدا أمانًا؟" فقالوا: لا، فخلى سبيلهم[٢]، وعفا عنهم، فأنزل الله تعالى:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الفتح:٢٤]، وعد القرآن الكريم العفو عن هؤلاء الكفار المحاربين منًّا من الله تعالى على عبادة المؤمنين[٣].

ج- ومن السماحة البالغة عفوه ﷺ عمن تعمد قتله، وقد تمكن النبى ﷺ منه، فقد أهدت يهودية شاة مسمومة للنبى ﷺ فأكل منها، فقيل: ألا نقتلها؟ قال: «لا»[٤]، مع أنها صرحت لرسول الله ﷺ بقصدها قائلة له: أردت لأقتلك، وقد عفا ﷺ عمن أراد قتله مرارا[٥].

---

(١) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد فى هدى خير العباد، (٣/ ٣٥٥ – ٣٥٩).
(٢) رواه أحمد فى مسنده (٢٧/ ٣٥٥)، رقم الحديث (١٦٨٠٠).
(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، (٧/ ٣٤٢).
(٤) رواه البخارى فى صحيحه: ك [الهبة]، ب [قبول الهدية من المشركين]، (٢/ ٢٤١)، رقم (٢٦١٧). ومسلم فى صحيحه: ك (السلام)، ب (السم)، (٤/ ١٧٢١)، رقم (٢١٩٠).
(٥) هذا التصريح فى رواية مسلم.

هذا، ومظاهر التسامح مع الآخر (الغرب) كثيرة، يشهد لها الواقع والتاريخ، فالمسلمون لم يكرهوا أحدًا قط على الدخول فى الإسلام، وإن وجود المسيحيين فى أسبانيا لدليل واضح على ذلك، فقد ظلوا آمنين على دينهم طوال القرون الثمانية التى ملك فيها المسلمون بلادهم، وكان لبعضهم مناصب رفيعة فى بلاط خلفاء قرطبة، ثم إذا لهؤلاء المسيحين أنفسهم يصبحون أصحاب السلطان فى هذه البلاد، فكان أول هم لهم أن يقضوا قضاء تامًا على المسلمين.

وهذه شهادة بعض المؤرخين والمستشرقين من الغرب:

- يقول لوبون: "إن مسامحة محمد لليهود والنصارى كانت عظيمة"[١].
- يقول أستيفن سن: " إن السلطان قد سمح لعدد كبير بالرحيل دون فدية"[٢]، ويقصد بالسلطان هنا : صلاح الدين الأيوبى.
- ويقول أستانلى لين بول: "إن السلطان قد قضى يومًا من أول بزوغ الشمس إلى غروبها ،وهو فاتح الباب للعجزة والفقراء تخرج من غير أن تدفع الجزية"[٣].
- يقول المؤرخ الإنجليزى (مل): "ذهب عدد من المسيحيين الذين غادروا القدس إلى انطاكية المسيحية فلم يكن نصيبهم من أميرها إلا أن أبى عليهم أن يضيفهم، فطردهم فساروا على وجوههم فى بلاد المسلمين، فقوبلوا بكل ترحاب"[٤].
- خرج البطريرك (ستانلى) بأمواله وذخائره الكثيرة دون أن يصرف منها شيئًا فى فداء الفقراء والمساكين، فقيل لصلاح الدين: "لم لا تصادر هذا فيما يحمل، وتستعمله فيما تقوى به أمر المسلمين؟"، فقال: " لا آخذ منه غير العشرة دنانير ولا أغدر به"، وفى ذلك يقول ستانلى لين بول: "قد وصل الأمر إلى أن سلطانًا مسلمًا يلقى على راهب مسيحى درسًا فى معنى البر والإحسان"[٥].
- يقول صاحب كتاب "قصة الحضارة": إن أهل الملل الأخرى نعموا فى ظل الإسلام بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيرًا فى البلاد المسيحية فى هذه الأيام، فلقد كانوا أحرارًا فى ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم[٦].

---

(١) غوستاف لوبون: حضارة العرب، مرجع سابق، ص١٢٨.

(٢-٤) ياسين بن على: مرجع سابق، ص٣٠.

(٥) ياسين بن على: مرجع سابق ص٣١.

(٦) انظر: حضارة العرب (ص١٥١، ٢١٥)، معاملة غير المسلمين فى الإسلام – عدة بحوث أصدرها المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية: قصة الحضارة (١٣ / ١٣٠).

وشهادة المنصفين من غير المسلمين على سماحة الإسلام مع أهل الأديان الأخرى كثيرة جدًا.

عدل وإنصاف الإسلام:

العدل فى القرآن الكريم عماد الخير والصلاح وعماد النظام وتمام الملك والسلطان، فلا نظام إلا بالعدل ولا أمانة إلا بالعدل ولا شرائع إلا بالعدل ولا حكمة ولا رحمة إلا بالعدل، فالعدل هو غاية الغايات ،وهو الأساس أو العماد الذى أنشأ الله عليه الكون، ليس فى الإنسان مع الإنسان فقط، وإنما فى الإنسان مع نفسه، وفى الإنسان مع ربه، وفى الإنسان مع أسرته، وفى الإنسان مع أمته، وفى الإنسان مع البشر جميعًا، وفى الإنسان مع كل ما فى الكون من نبات وحيوان وجماد، هذه مكانة العدل فى الإسلام. وكثيرًا ما حكى القرآن عن مصير الأمم التى حرمت من إدراك العدل وتفشى فيها الظلم حتى أدركها الفناء والهلاك. أما قوله تعالى :﴿ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [الأنعام :١٥٢] فهو أخذ بالإنسان عما جرت به عاداته من التأثر بصلات القربى فى المحاباة للأقرباء والظلم لغيرهم[1] .

وإذا تتبعنا معانى (العدل) عبر مختلف مواضع وروده فى القرآن الكريم من خلال كتب التفسير أمكن توزيعها على المحاور التالية:

فى العقيدة:

قال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝ ﴾ [الأنعام]. أى مع ان الله سبحانه وتعالى هو وحده خالق السموات والأرض والظلمات والنور فإن قومًا من الناس يشركون ويتخذون له الأنداد وينسبون لها ما ليس لها، ومن ذلك أن تنسب الأفعال إلى الأسباب مع نسيان فعل الله الذى سخر الأسباب. وقال تعالى:﴿ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ﴾ [الأنعام : ٧٠].

---

(١) أحمد عامر: مقومات النظام السياسى الإسلامى وعلاقته مع الآخر،سلسلة فكر المواجهة (٢) ندوة: الإسلام وحوار الحضارات مرجع سابق ، ص٧٦، ٧٧.

فى الحكم:

قال تعالى:﴿ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾ [الأعراف] . أى: يحكمون، وقال تعالى:﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [النساء] ، ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ [الشورى]. وهذه الآيات وسواها ناطقة بالرد الصريح على أولئك الذين لا يفتؤون يلحون على أن القرآن لم يتضمن معانى الحكم.

فى القضاء:

قال تعالى: ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة :٨] ، أى: هذا أمر للقضاة والحكام بالتسوية بين الناس عامة ، بين المؤمن والكافر والقريب والبعيد.

فى الشهادة:

قال تعالى:﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ ﴾ [الأنعام : ١٥٢] ، ﴿ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ﴾ [البقرة :٢٨٢] ، أى: بالقسط والحق فيكون قوله مساويًا للحقيقة بلا زيادة ولا نقصان.

فى شؤون الأسرة:

قال تعالى:﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً ﴾ [النساء :٤].﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ ﴾ [النساء :١٢٩]. أى: إذا كانت التسوية التامة بين الزوجات صعبة المنال، فسددوا وقاربوا ولا تتركوا الميزان يختل جملة ، بل اعدلوا فيما أنتم قادرون على العدل فيه ...

فى الصلح بين المتخاصمين:

قال تعالى:﴿ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ ﴾ [الحجرات :٩].

فى الصدق واستواء السر مع العلن وترك الظلم والتزام الإنصاف أبدًا:

قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [النحل] .

إن معانى العدل فى هذه الآيات تدور حول معنى أساسى هو التزام الحق، وإتيان كل ذى حق حقه ، ويدخل فى ذلك معانى التسوية والمساواة ، فالعدل عدم بخس الناس أشياءهم ومحاولة التسوية[١] .

وحينما نادى بوش الصغير بعد أحداث ١١/ ٩/ ٢٠٠١م لحرب صليبية، وحينما أعلن شرودر المستشار الألمانى بأن الهجوم على أمريكا هو هجوم على الحضارة الغربية التى افتخر بها، وأشاد بمحاسنها كحقوق الإنسان وحرية الأديان التى لا توجد فى البلدان الإسلامية، وحينما قال برلسكونى رئيس الوزراء الإيطالى بأن الحضارة الغربية أعلى من الإسلام وأرقى، هل قالوا قولهم هذا إيمانًا بنظريات النسبية، والتعددية، التى يتبجح بها الغرب ويدعو المسلمين إلى تبنيها، فهى ليست إلا نظريات مثالية لا واقع لها، فهى عبارة عن حبر على ورق يؤولونها كما يشاؤون، يقول المفكر المعروف إيرفنغ فتشر: إن لشعوب النصرانية كل مسوغ فى أن تكون خجلة من عدم تسامحها الدينى والأيديولوجى فى العصور السالفة، ويقينًا ليس لهم الحق فى أن يشيروا بأصبع الاستهجان إلى الآخرين ، ونحن بدورنا نقول: ما الفرق بين العصور السالفة واليوم؟ [٢]، ما الفرق بين الحرب الصليبية التى أسالت دماء المسلمين واليهود أنهارًا فى بيت المقدس (أورشليم) وبين الحرب الصليبية التى أشار إليها بوش الصغير فى أفغانستان؟

ما الفرق بين احتلال مصر والجزائر على يد الإنجليز والفرنسيين، وبين احتلال العراق فى سنة ٢٠٠٣م على يد الأمريكان والإنجليز؟

ما الفرق بين محكمة التفتيش المسيحية الإسبانية التى نصبت للمسلمين واليهود وبين سجن (معتقل) "غوانتانامو" الذى يعامل فيه المسلمون كالحيوانات؟ [٣] .

---

(١) راشد الغنوشي: حقوق المواطنة، حقوق غير المسلم فى المجتمع الإسلامى، من سلسلة قضايا الفكر الإسلامى (٩)، المعهد العالمى للفكر الإسلامى، هيرندن، فيرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط٢، ١٩٩٣، ص٣٧-٣٨.

(٢،٣) ياسين بن على: مرجع سابق، ص٣٥.

وهل من العدل والإنصاف والتعددية الثقافية أن تراقب المساجد ويقهر الأئمة فيها ويضغط عليهم، وتمنع الكثير من المدارس الغربية المسلمات المحجبات من دخولها إلا بعد نزع اللباس الشرعى؟

وهل من العدل والإنصاف أن تمنع مؤسسات وحركات إسلامية سياسية فكرية وترفض العنف من النشاط فى بعض دول الغرب؟

وهل من العدل والإنصاف أن تغلق بعض الجمعيات الخيرية، وتصادر أموالها بتهمة مساعدة الإرهاب؟

وهل من العدل والإنصاف واحترام الحضارات، أن تغير مناهج التعليم فى بلاد المسلمين كباكستان، بما يناسب الأمريكان؟

فمتى يكون الغرب عادلًا ومنصفًا؟ عندما يبدل المسلمون دينهم، ويعتنقون العلمانية والرأسمالية، أى: عندما يتحول المسلمون إلى غربيين، هل هذا هو العدل؟

ولقد ضرب الإسلام أروع الأمثلة فى العدل، والإنصاف مع أعدائه، منها ما يلى:

١-أحد المسلمين سرق درعًا، وألقاها فى بيت يهودى ليسلم من تبعتها ويؤخذ اليهودى بها، وهمَّ رسول الله ﷺ أن يعذر المسلم بسبب ما ظهر من قرائن الأحوال المادية الدالة على سرقة اليهودى للدرع، فأنزل الله تعالى فى ذلك:﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [النساء :١٠٥].

وهذا العدل وإيجابه مع العدو على النحو الوارد فى الآية لا يرقى إليه نظام من نظم الأرض على مر العصور، فها هو الوحى ينزل من السماء مبرئًا يهوديًا يكفر بالله تعالى، متوعدًا بالغضب واللعنة من رب العالمين. وأن الإسلام يفرق بين وصف شخص ما بالكفر، وبين التعامل معه، فالكافر له الحق فى أن يعامل بعدل وإنصاف، ليس ذلك فحسب بل بالبر والإحسان فى أحوال كثيرة.

٢-وقد بلغ الإسلام مع أعدائه فى الوفاء بعهودهم مبلغًا عظيمًا، ولو كانوا فى وقت حرب وقتال:

- عن أبى رافع ﷺ قال: بعثتنى قريش إلى النبى ﷺ قال: فلما رأيت النبى ﷺ وقع فى قلبى الإسلام، فقلت: يا رسول الله، لا أرجع إليهم، قال: **"إنى لا أخيس بالعهد، ولا**

أحبس البرد، ارجع إليهم فإن كان فى قلبك الذى فيه الآن فارجع"[١] ، أى: لا أنقض العهد، ولا أحبس الرسل.

• بعث مسيلمة الكذاب (مسيلمة بن ثمامة) رسولين إلى النبى ﷺ ، فلما أتياه قال لهما ﷺ: "أتشهدان أنى رسول الله؟" قالا: نشهد أن مسيلمة رسول الله، فقال النبى ﷺ: "آمنت بالله ورسله، لو كنت قاتلًا رسُولا لقتلتكما"[٢] .

وهذا فى غاية العدل مع الأعداء، فلم يحبس رسول الله ﷺ أبا رافع، وقد أسلم، لأنه مرسل من قبل قريش، وليس من العدل ولا الوفاء بالعهد حبس الرسل، وكان ذلك معروفًا فى ذلك الزمان، ولم يقتل رسولا مسيلمة الكذاب ،ولم يؤذهم مع الكفر أمامه ﷺ.

٣-تحريم ظلمهم:

وهذا من مقتضيات العدل ولوازمه فلا يحل ظلم الآخر – غير المسلم – فى نفس أو مال أو غير ذلك، ورهّب النبى ﷺ المسلمين من ذلك ترهيبًا عظيمًا، فقال ﷺ: "ألا من ظلم معاهدًا، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة"[٣] .

فمن تعدى على معاهد، أو عابه أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس، فإن النبى ﷺ يحاجه يوم القيامة ويغالبه، إذ كيف يظلم من هو فى ذمته ﷺ ،ولم يهمل المسلمون على مر العصور وصية نبيهم ﷺ فى أهل الذمة، وحاشاهم أن يجتمعوا على مخالفته ﷺ فى ذلك، وقد شهد المنصفون بامتثال الصحابة ﷺ ما أمرهم به نبيهم ﷺ من العدل والإنصاف، وعدم الظلم لأهل الذمة.

يقول لوبون: "وعامل عمرو بن العاص الفلاحين بما لم يعرفوا من العدل والإنصاف، منذ زمن طويل"[٤] .

الإسلام وحسن العشرة:

يعد حسن العشرة مظهر من مظاهر التعايش المشروع الذى لا يمكن أن تستقيم الحياة

---

(١) رواه أحمد فى مسنده: (٩/ ٢٨٢ – ٢٨٣)، حديث رقم (٢٣٨٥٧)، و أبو داود فى سننه: ك (الجهاد)، ب (فى الإمام يستجن به فى العهود) رقم (٢٧٥٨)، ص٤٠١.

(٢) رواه أحمد فى مسنده: (٦/ ٣٠٦)، حديث رقم (٣٧٦١).

(٣) رواه أبو داود فى سننه: كتاب (الخراج الفىء والإمارة)، باب (فى تعشير أهل الذمة)، حديث رقم (٣٠٥٢)، ص٤٤٧.

(٤) غوستاف لوبون: حضارة العرب، مرجع سابق، ص٢١٥.

بدونه ، والحركة من طبيعة البشر، ولولاها ما عمروا سطح هذا الكوكب، وفى تحركهم يحملون معهم ولاءهم لأوطانهم وعقائدهم ، ومن أجل ذلك كان التعايش مع التباين والتعددية الثقافية هو الأساس"[١] ، وفى المجتمعات الإسلامية منذ عصر النبى ﷺ إلى اليوم وأن حسن العشرة أمر به الإسلام أتباعه أن يسلكوه مع بعضهم البعض، ومع غيرهم من الملل الأخرى، لا سيما إذا كان غير المسلم (الآخر) من أهل الذمة ،ودلائل هذا المظهر يصعب حصرها، فهو على سبيل الاختصار ما يلى:

١-عيادة مرضاهم:

عن أنس ﷺ أن غلامًا يهوديًا كان يخدم النبى ﷺ مرض، "فأتاه النبى ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: «أَسْلِمْ»، فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم ﷺ ، فأسلم، فخرج النبى ﷺ وهو يقول: "الحمد لله الذى أنقذه من النار"[٢] ، ولا تنحصر زيارة الآخر – غير المسلم – فى تأليفه على الإسلام، فإن ذلك يختلف باختلاف المقاصد، وزيارة الخادم وإن كان كافرًا من حسن العشرة[٣] .

حسن جوارهم:

وهذا الحق لغير المسلم فى المجتمع الإسلامى وغير الإسلامى، مستأمنًا كان أو ذميًا، قال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النساء]. وقد فسر الجار الجنب فى الآية باليهودى والنصرانى. والإحسان قد يكون بمعنى حسن العشرة، وكف الأذى والمحاماة دونه.

٢-قبول هديتهم والإهداء إليهم:

وهذا من مظاهر حسن العشرة، ولا يخفى أثر الهدية فى إشاعة الألفة وتخفيف أثر العداوة، أو إزالتها.

---

(١) معاملة غير المسلمين فى الإسلام، ص٨٣.

(٢) رواه البخارى فى صحيحه: ك (إذا أسلم الصبى فمات هل يصلى عليه؟ وهل يعرض على الصبى الإسلام؟ (١/ ٤١٦)، رقم الحديث (١٣٥٦).

(٣) ابن حجر: فتح البارى (٣/ ٢٨١).

وأمثلة قبول النبى ﷺ لهدايا المشركين كثيرة منها:

أ- قبول هدية ملك أيلة، وكان نصرانيًا: "فقد أهدى للنبى ﷺ - بغلة بيضاء وكساه بردا"[١].

ب- كما أهدى أكيدرُ دُومة إلى النبى ﷺ جبة سندس فقبلها"[٢].

ج- كما قبل النبى ﷺ هدية المقوقس صاحب مصر[٣].

د- وقبل هدية عظيم فدك[٤].

هـ -وقبل من اليهودية شاة، فأكل منها، وكانت مسمومة[٥].

وقبول هدايا غير المسلمين - أهل الذمة - لم يكن خاصًا بالنبى بل أذن لأصحابه فى قبول الهدايا من المشركين والإهداء إليهم.

٤ -تحيتهم ورد السلام عليهم:

وهذا - أيضًا - من حسن العشرة، والبر، والقسط الذى شرعه الله تعالى مع الآخر.

وهل يشرع للمسلم أن يرد على الذمى بقوله: وعليكم السلام، أم يكتفى بقوله: وعليكم فقط؟

فإذا سلم الذمى سلامًا واضحًا بينا قال فيه: السلام عليكم، فإن المشروع أن يرد المسلم بقوله وعليكم السلام: وذلك أن النبى ﷺ بين فى حديثه سبب قصر الرد على قول: وعليك فقط، وهو أنهم كانوا يتعمدون فى تحيتهم لى ألستهم بالتحية، ويحيون النبى ﷺ بما لم يحيه به الله تعالى، ويقولون :السام عليك[٦]، فأمر الرسول ﷺ بالاقتصار على قول: وعليك، للسبب المذكور، فقال ﷺ : "إذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم: السام عليك، فقل: وعليك"[٧]. السام بمعنى: الموت.

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه: ك (الزكاة)، ب (خرص التمر)، (١/ ٤٥٩)، رقم (١٤٨١). أيلة: مدينة على ساحل خليج العقبة، وتعرف اليوم باسم العقبة.

(٢) صحيح البخارى: ك (الهبة)، ب (قبول هدية المشركين)، (٢/ ٢٤٠ - ٢٤١)، رقم (٢٦١٥ - ٢٦١٦).

(٣) أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد ٤/ ١٥٢ طبعة: دار الكتاب العربى - بيروت ١٤٠٧هـ

(٤) سنن أبى داود: ك (الخراج والفىء والإمارة)، ب (فى الإمام يقبل هدايا المشركين)، رقم الحديث (٣٠٥٥)، ص٤٤٧.

(٥) أخرجه البخارى: ك (الهبة) ب (قبول الهدية) ٢/ ٩٢٢ رقم (٢٤٧٤).

(٦) أنظر : صحيح البخارى: (٤/ ٩٥)، رقم الحديث (٦٠٤٢)، انظر : صحيح مسلم: (٤/ ١٧٠٥)، رقم الحديث (٢١٦٣).

(٧) رواه البخارى فى صحيحه: ك (الاستئذان)، ب (كيف الرد على أهل الذمة بالسلام)، (٢/ ١٤٢)، رقم الحديث (٦٢٥٧).

لذا لو تحقق المسلم من أن الآخر – غير المسلم – قال: السلام عليك، فالمشروع أن يرد بقوله: وعليكم السلام. فإن هذا من باب العدل، والله أمر بالعدل والإحسان، وقد قال تعالى:﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [النساء].

مجادلتهم بالتي هي أحسن:

لابد من الحوار بين أتباع الدين الواحد، فضلًا عن أتباع الأديان المختلفة وهذا أمر لا مانع فيه.

والإسلام- حرصًا منه على التعايش الإيجابي بين المسلمين والآخر – أمر أن يكون هذا الحوار بالتي هي أحسن .

قال تعالى:﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل : ١٢٥].

والمجادلة بالتي هي أحسن هي: الحوار الإيجابي البناء، والحوار أسلوب أصيل من أساليب الدعوة الإسلامية، وللحوار البناء دوره الكبير في تأصيل الموضوعية، ورد الشبهات، وبيان الحق.

من آداب الحوار وضوابطه:

وهنا نتطرق إلى آداب وضوابط الحوار التي تمثل مظهرًا من مظاهر حسن العشرة مع الآخر، والابتعاد بالحوار عن السلبيات التي تجعله ضعيف الفائدة، والتي منها:

١-وضوح المنطلق [(١)] :

أي يجب أن تكون منطلقات الحوار واضحة لدى الطرفين لاسيما الطرف المسلم،ومن ذلك:

أ-ألا يكون المنطلق عند الطرف المسلم تسجيل موقف الغلبة على الطرف الآخر في ميدان السباق، بل ينطلق من محبة الخير له ،قاصدًا بيان الحق بالحجة والبرهان.

---

(١) أحمد جودة السيد: دعوة غير المسلمين إلى الإسلام في البلدان العربية (الواجب والواقع)، رسالة ماجستير، كلية أصول الدين والدعوة، جامعة الأزهر، فرع المنصورة، ١٤٢٦هـ / ١٤٢٧هـ، ص٢٤٧-٢٤٨.

ب- أن ينطلق من موقف قوة وثبات، لا ضعف وتردد.

ج - الانطلاق من المبادئ والأصول المشتركة، حيث هناك مبادئ مشتركة مع أتباع الأديان الأخرى، لاسيما اليهودية والنصرانية كالإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر من حيث العموم دون التفاصيل، كما أن المبادئ المشتركة عند المدعوين من مقتضيات الفطرة ومنها حسن العدل، والصدق، وقبح ضدهما، فينبغي أن يكون منطلق الداعية في حواره مع أتباع الأديان الأخرى، هو الاعتماد على مقتضيات الفطرة ونقطة الوفاق في أصل العقيدة، وهذا يجعل الخطاب الدعوى أقوى وأنفذ، وأحكم.

وينبغي الحذر من عرض هذه المبادئ المشتركة بطريقة توهم عامة المسلمين، وتوقعهم في الشك والاضطراب فيما يعتقدون من ثوابت شرعية، مثل: بطلان كل دين سوى الإسلام، وعموم بعثته ﷺ لجميع البشر، ونحو ذلك، ولذا ينبغي اختيار موضوعات الحوار بدقة بالغة.

٢- تحديد الغاية من الحوار وتوضيحها في نتائج الحوار [١] :

ينبغي التركيز على تلك الأهداف في نتائج الحوار وإلا كان قليل الفائدة ؛ ولذا كان للأنبياء في حوارهم هدف واضح مع أقوامهم وهو: دعوتهم إلى الله تعالى، واستنقاذهم من النار. وقد قص القرآن الكريم علينا حوار إبراهيم عليه السلام مع قومه في سورة الأنعام، وجاءت نهاية الحوار هكذا: ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنعام]، وإبراهيم عليه السلام راعى في الحوار الكثير من حيث:

المحافظة على صلته بالخصوم، وتقريبهم إليه بقوله: ﴿ يَٰقَوْمِ ﴾ أملًا في كسب إيمانهم.

أعلن الحكم على عبادتهم للكواكب وهو: أنها شرك ﴿ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ .

أعلن استنكاره لهذا الشرك ﴿ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ .

---

(١) أحمد جودة السيد: مرجع سابق، ص٢٤٩.

بين لهم البديل الصحيح الذى يجب أن يتجهوا إليه بدل الشرك ، وهو الإيمان بالله: ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ﴾ [الأنعام].

بين لهم قدرًا كافيًا من مزايا الإله الواحد الذى يدعوهم إليه، ويكفى أنه "فطر السموات والأرض".

يخشى إبراهيم عليه السلام اللبس والتأويل كقولهم: نعبد الإله الذى تدعونا إليه ونعبد معه آلهتنا، فيقول لهم: إنه يأبى الشرك مع الله: ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ . ويجب أن تكون غاية كل حوار مع الآخر هى الدعوة إلى الإسلام فى أى جانب من جوانبها.

٣- أهلية المحاور:

المسلم المحاور يندرج تحت أهليته أمور، منها ما يلى:

أ- أن يكون قوى الحجة، صادق الانتماء، متين الديانة، واسع العلم، متفقهًا لفنونه وأساليبه.

ب- أن يلتزم بآداب الحوار فى الإسلام فى جميع مراحل الحوار. ومن هذه الآداب:

- حسن المخاطبة، وطيب القول قال تعالى:﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [البقرة :٨٣] ، ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [الإسراء: ٥٣] ، ومدح المؤمنين بقوله تعالى:﴿ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحج].

- البعد عن السب، وجرح المشاعر، والاستخفاف بالمحاور، وعدم التعالى عليه، قال تعالى:﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام : ١٠٨]. وقال تعالى – لموسى وهارون – عليهما السلام:﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [طه] .

- استعمال العبارات اللائقة، والبعد عن العبارات المنفرة: وعلى هذا جاءت نداءات القرآن الموجهة للآخر – لغير المسلم – مثل:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ [النساء:١٧٠]، و﴿ يَٰقَوْمِ ﴾

[الأنعام: ٧٨] ، و﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [المائدة :١٥] ، و﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [الجمعة :٦] .

- تحمل فظاظة المخاطب، ودفع إساءته بالإحسان:

قال تعالى:﴿ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [فصلت] .

٤ -التزام الموضوعية وعدم الخروج عن مجال النقاش:

يتحقق ذلك بتوافر آداب الحوار السابق ذكرها بالبند (٣)، وغير ذلك من الآداب، والضوابط التى تجعل الحوار مثمرًا وفعالا.

هذا، وهناك مسائل أخرى تتعلق بحسن العشرة مع الآخر – الغرب – أو غير المسلمين مثل:

أ- إجابة دعوتهم للطعام: قال تعالى:﴿ ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٥﴾ [المائدة].

ب-تعزيتهم، وشهود جنازتهم.

جـ- معاملتهم بالبيع والشراء ونحوهما.

وغير ذلك مما ينبغى على الدعاة الوقوف عليه؛ لأنه جانب مهم من جوانب العلاقة بين الإسلام والآخر (الغرب) أو غير المسلمين.

الإسلام يدعو إلى السلام:

- معنى السلام فى اللغة [1] :

السلام مصدر من كلمة"سلم "وهى بمعنى برئ وخلص من العيوب،وتأتى بمعنى الصلح والتسليم،وتأتى بمعنى التحية.والسلام بمعناه اللغوى العام:الأمن والطمأنينة

(١) عبد العزيز الخياط: الإسلام دين السلام..، ص٣٢٦،بحث مقدم للمؤتمر العاشر للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، بالقاهرة ، مرجع سابق.

وسيادة المحبة والوئام والمودة والتعاون.

• معنى السلام فى الإسلام[١]:

اعتنى الإسلام بالسلام، فاسم الإسلام مشتق من السلام، فالإسلام دين المحبة والتعاون والاطمئنان والعدالة والأخوة والمساواة، دين الانقياد والطاعة لله خالق الأرض والسماء، وكلمة السلام تعنى: التسليم والاطمئنان، ولهذا ذكرها القرآن الكريم مع ما يشتق منها أكثر من ثمانين مرة فى أكثر من ثمانين آية فى مناسبات مختلفة بمعانيها المختلفة بحسب المواقف، ولكنها تصب فى المعنى الأساسى لها: صفاء قلب، وتعاون إنسانى، وهدوء بال، وطمأنينة نفس، وذكر لفظة السلام (٤٢) مرة. والمسلمون كرمهم الله بهذا الاسم، قال تعالى:﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج:٨٨].

قال تعالى:﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة]، وقال تعالى:﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة].

الإسلام دين سماوى، وهو دين السلام، ومأخوذ من أسمائه تعالى: (السلام) ،وقد جعل الله تحية الإسلام السلام. والمسلم فى نظر القرآن هو من أسلم وجهه وقلبه وحياته كلها لله واتبع شرعه، وآمن باليوم الآخر، والملائكة، والكتب، والمرسلين دون استثناء أو تمييز. وقد وصف الرسول (ﷺ) المسلم بقوله: " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده"[٢] . فهذا دليل على أن الإسلام دين السلام. والقرآن الكريم وضع قاعدة تعد الدستور الأساسى فى معاملة المسلمين لغيرهم من الناس، فقال تعالى:﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة] .

فالآية واضحة تمامًا فى تقرير العلاقة بين الإسلام والمسلمين والآخر (غير المسلمين)، إنها علاقة قائمة على أمر أعظم من العدل – الذى هو إعطاء كل ذى حق حقه .

---

(١) المرجع السابق: ص٣٢٦.

(٢) أخرجه البخارى: ك (الإيمان) ب (المسلم من سلم المسلمون) ١/ ١٣ رقم (١٠).

وقد وردت تحية السلام بعبارات مختلفة نص القرآن عليها وبينت السنة الشرعية بعضها، ففى القرآن الكريم مثلًا:

١-﴿ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [الأعراف :٤٦].

٢- ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ [الرعد:٢٤] .

٣-﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ [الفرقان] .

٤- ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴾ [الحجر] .

٥- ﴿ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات] .

٦- ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء] .

٧-﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴾ [طه].

ووردت فى النصوص النبوية الشريفة مثل:

١-السلام عليكم ورحمة الله.

٢-السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته. السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. المسلمون يقولون ذلك فى تشهدهم فى صلواتهم خمس مرات كل يوم.

٣-سلام على من اتبع الهدى.

٤-سلام على من آمن.

٥- قال النبى ﷺ لأهل العقبة فى الميثاق الذى عقده بينه وبينهم فى نهاية الكتاب: (سلام عليكم) ،فخاطب غير المسلمين بالسلام.

الإسلام يدعو إلى الأخوة الإنسانية:

قرر الإسلام وحدة البشر، وأعلن الإخوة الإنسانية بينهم، وأن الناس جميعًا ولدوا من أب واحد، وأم واحدة، وأنهم سواسية لا فرق بينهم لا فى العرق ولا فى اللون ولا فى البلد، ودعا إلى نبذ التعصب العرقى أو الدينى أو الطائفى، ولذلك كان دينًا عالميًا، ليس منغلقًا على شعب من الشعوب، أو على زمن من الأزمان، وقرر ذلك نصوصًا فى القرآن

الكريم والسنة النبوية ، وجعل الإيمان بها جزءًا من عقيدة الإسلام، وأوجبها عملًا[١] .

وأول هذه النصوص فى الأخوة الإنسانية قوله سبحانه وتعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات]. وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء] ، فآية الحجرات دلت على إتحاد أفراد الإنسان من حيث الحقيقة الإنسانية، ونفت الفرق بينهم من جهة انتهاء تكون كل واحد منهم إلى أبٍ و أمٍ فلا ينبغى أن يتكبر أحدهما على الآخر، ولا يتكرم إلا بالتقوى[٢] .

كما أن المقصود بالتعارف استقامة تواصل البشر ومعاملتهم، إذ لا يتم ائتلاف ولا تعارف ولا تعاون ولا تعاضد من غير تعرف، حتى لا يستبعد بعضهم بعضًا، ويستعلى قوم على قوم فينجروا إلى ظهور الفساد فى البر والبحر وهلاك الحرث والنسل فينقلب الدواء إلى داء[٣] .

وفى هذا تحقيق معنى الأخوة الإنسانية الذى أكده الرسول ﷺ بقوله:«إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعظمها بالآباء والأجداد، الناس لآدم وآدم من تراب»[٤]. وقوله ﷺ: «الناس سواسية كأسنان المشط»[٥] .

فلا تفريق من حيث الإنسانية بين جنس وجنس، ولا بين مسلم ونصرانى، ولا يهودى ولا وثنى ولا صاحب دين آخر. فقضى الإسلام بذلك على التعصب للأجناس أو الألوان أو غيرها ،وإنما تعايش مع المجموعة الإنسانية فى إخوتها الرائعة.

وكانت الممارسة والتطبيق واضحة فيما كان عليه المسلمون فى معاملاتهم وتعاطفهم وإخوتهم.

فكان الناس – ولا يزالون – يتحاربون فى كل عصر، وفى كل صقع، وكلما تقدمت

---

(١) عبد العزيز الخياط: مرجع سابق، ص٣٢٤.

(٢) عبد العزيز الخياط: مرجع سابق، ص٣٢٥.

(٣) روح المعانى للألوسى ٧/ ١٩٤ طبعة: دار إحياء التراث العربى – بيروت.

(٤) أخرجه الترمذى: ك (المناقب) ب (فى فضل الشام واليمن) ٥/ ٧٣٥ حديث (٣٩٦٥).

(٥) محمد بن عيسى الترمذى السلمى: سنن الترمذى، ج٥ ، ص٧٣٥١ ، دار إحياء التراث العربى ، ج٥ ، بيروت ، د.ت .

الحضارة بهم تَفَنَّنوا فى صنع عتاد الحرب والتخريب والتدمير، يقوضون بمخترعات العلم والحضارة ما أبدع العلم والحضارة، ويهدمون اليوم ما بنت الأجيال من قبل. وهم لا يريدون من الحرب إلا توسيع الرقعة – الغرب – وبسط السلطان ، وإرواء الظمأ إلى الشهرة والمجد، واستعباد الضعيف، والاستئثار بخيرات بلاده .

وكثير ما علت صيحات الدعوة إلى السلام، لكنها كانت تذهب دخانًا فى الهواء.

وليس صراع العالم اليوم – وهو صراع يهدد البشر بالانقراض، ويعرض الحضارة للدمار – ناشئًا عن بواعث سامية، أو غايات راقية، وإنما هو صراع مبعثه وهدفه الغلب والسيطرة والاستئثار بالسلطان والخيرات[1] .

أما الإسلام فهو دين سلام، فالإسلام يدعو إلى المثل الأعلى فى جميع الصلات والمعاملات، فإن لم ينجح المثل الأعلى تمشى الإسلام مع الواقع.

وحسبنا هنا شهادة (السير توماس أرنولد) فى قوله:" تصدعت أركان الإمبراطورية العظمى، وتضعضعت قوة الإسلام السياسية، ولكن ظلت غزواته الروحية مستمرة دون انقطاع". وعندما خربت جموع المغول بغداد (١٢٥٨م) وأغرقوا فى الدماء مجد الدولة العباسية (١٣٢هـ - ٦٥٦هـ)، وعندما طرد فرديناند – ملك ليون وقشتالة – المسلمين من قرطبة (١٢٣٦م)، ودفعت غرناطة – آخر معاقل الإسلام فى إسبانيا – الجزية للملك المسيحى، فى هذا الوقت كان الإسلام قد استقرت دعائمه، وتوطدت أركانه فى جزيرة سومطرة، وكان على أهبة أن يحرز تقدمًا ناجحًا فى الجزر الواقعة فى بلاد الملايو[2] .

وقد بنى القرآن الكريم دعوته إلى الإصلاح بين الناس كافة، حيث هم إخوة فى الإنسانية؛ لأنهم من أب وأم واحد. تباركت يارب، لقد هديت عبادك إلى أعظم نظام لصون السلام وحفظ الأمن، والفصل العادل بين الأمم المتنازعة.

وهذا هو مجلس الأمن الحقيقى، مجلس الأمن الذى يستمد قوته من الحق والعدل ولا يراعى شيئًا غير الحق والعدل، مجلس الأمن الذى شكله الخالق، فهو يسعى إلى الخير، ويقر السلام على الأرض، ويعتز برهبته الروحية الدينية.

وهيهات أن يصل إلى شىء من ذلك ما قام على أهواء الأمم من جماعات مثل (عصبة

---

(١) المرجع السابق: ص١٠٣.
(٢) أحمد محمد الحوفى: مرجع سابق ص١٠٦.

الأمم) و (هيئة الأمم المتحدة) و (مجلس الأمن) لأنها جماعات خيبت الآمال كلها، فليس لها من حقيقتها إلا اسمها، وهدف كل دولة فى هذه الجماعات أن ترعى مصالحها، وأن تحتفظ بنفوذها، وأن تحابى من يوادها، وتضع العراقيل فى طريق من تخشى قوته – مثل ما يحدث فى هذه الأيام مع إيران وغيرها – أما الحقوق وحقوق الضعفاء بخاصة، أو السلام الذى يتشوق الناس إليه، فقد صار كله نسيًا منسيًّا[١].

ولهذا لا تكاد تنقطع الحروب ملتهبة وباردة، ويتخرب العالم شيعًا وكتلًا، ولهذا يطغى القوى على الضعيف، ويطمع المسلح فى الأعزل، ولا تكاد تنتهى حرب حتى تبدأ فى أعقابها حرب أخرى أشد طحنًا، وأهول فتكًا ويفتخر المنتصر الظالم بنصره على أخيه كأنما كسب للإنسانية مملكة، أو حماها من تهلكة.

الوعى بلقاء الحضارات:

لعل نظرة فاحصة، إذا نحن تأملنا الحضارة الغربية منذ اليونان وحتى نهضتها الحديثة، والحضارة الإسلامية منذ تبلورها كثمرة لاندماج هذه المواريث فى الفكر الإسلامى الذى إستصفاها وطورها وفقًا لمعاييره[٢]،هذه النظرة توضح أنه لم يكن المسلمون مجرد نَقَلَة، ولكن إضافتهم للأصول التى نقلوا عنها تشهد بأنهم زادوا وابتكروا؛ لأنهم كانوا ينظرون بعين إلى الحضارات التى أخذوا عنها وبالعين الأخرى إلى التعاليم الإسلامية[٣] .

إذًا: لابد من التصور الذى يقوم على أن الفكر- إذا نظرنا إليه على المستوى العلمى الإنسانى وجدنا فيه ما هو مشترك إنسانى عام لا يختص عنها بحضارة بذاتها وفيه أيضًا ما يتميز بالخصوصية والاختصاص. والتميز فى الفكر بين ما هو مشترك إنسانى وبين ما هو خصوصية حضارية، وإنما تحكمه وتحدده معايير موضوعية. فكل العلوم التى تكون الطبيعة موضوعها وظواهرها المادة وخصائصها، هى من قبيل الفكر الذى هو مشترك إنساني عام وذلك لأن مناهجها تتميز بالحياد العلمى. ولأن التجربة الملموسة بالحواس المادية هى السبيل لاكتشاف حقائق هذه العلوم تلك، الحقائق التى هى بنت الدليل، ولا تختلف باختلاف مذاهب وعقائد وأجناس وفلسفات المكتشفين[٤] .

---

(١) المرجع السابق: ص١٠٩-١١٠.

(٢) محمد عمارة: الغزو الفكرى وهم أم حقيقة، ص٩ ، ط٢ دار الشروق ، القاهرة، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧م.

(٣) أحمد عبد الرحيم السايح: العالم الإسلامى بين مصادر القوة وعوامل الضعف، القسم الثانى، العدد (٦٢)، ص١٠٢ سلسلة قضايا إسلامية، تصدرها المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م .

(٤) المرجع السابق: ص١٠٢-١٠٣.

ومن ثم فهى لا تتغير بتغير القوميات والحضارات ، بل هى واحدة على المستوى الإنساني، كما أن موضوعاتها المادة وظواهرها واحدة هى الأخرى، لاتختلف ولا تتغاير باختلاف وتغاير الحضارات، فعلوم مثل الرياضيات بفروعها، ومثل الكيمياء والطبيعة والطب والجيولوجيا لم ولن تختلف مناهجها وحقائقها وقوانينها باختلاف الحضارات. وقد تتمايز وظائف استخدام قوانينها ونظرياتها ومكتشفاتها لكن حقائق علومها أى: "فكرها العلمى" سيظل واحدا مهما اختلفت المذاهب والعقائد والحضارات[١] .

فالتأثيرات الحضارية والاستعارات الثقافية والأفكار والآراء والنظريات المتبادلة بين الأمم والشعوب إنما هى ظاهرة صحية طبيعية سليمة، لا خطر فيها ولا خوف منها.

والعرب هم وارثو الحضارات القديمة، إذ لم يكونوا قبل الإسلام معزولين عن جيرانهم أصحاب الثقافات العريقة عزلة كاملة ،فقد انفردت الصحراء العربية بين صحارى العالم أجمع بأنها أحيطت منذ القدم بأرقى حضارات العالم. ففى الشمال ازدهرت حضارة ما بين النهرين وحضارات الإغريق والكنعانيين والآراميين وجزر بحر إيجة.

وفى الغرب ازدهرت حضارة المصريين القدماء، وفى الشرق كانت الحضارة الفارسية ومن ورائها الحضارات الآسيوية الأخرى، وفى الجنوب كانت حضارة اليمن[٢] .

وكانت القوافل العربية دائمة الحركة بين مراكز هذه الحضارات عند أطراف الصحراء تنقل السلع والبضائع، وكان لابد أن تتحرك المعارف والثقافات مع السلع والبضائع ،وأن تختلط هذه الثقافات وتتزاوج فى حركة بطيئة، ولكنها ثابتة مستمرة، وأن يؤدى كل ذلك إلى تصفية الأفكار والمعارف وتقدمها تبعًا لهذا الاختلاط والتزاوج[٣] .

وكان اختلاط العرب بهذه الأمم اختلاط قتال وحروب ومعارك أولًا ثم اختلاط حضارة وثقافة وأفكار بعد ذلك ومن هنا كان التأثير. ومن هنا كان التفاعل والتلاقح، وكان الأخذ والعطاء، وتبادل الأفكار والآراء.

وعندما نبحث فى حضارات الأمم نجد ما هو مشترك وما هو خاص قد تم وفق أن هناك ما هو مشترك إنسانى عام، وهناك ما هو خاص.

فالتقاء الحضارات – وهو معلم التاريخ الحضارى للإنسانية وتفاعل هذه الحضارات

---

(١) محمد عمارة: الغزو الفكرى وهم أم حقيقة، مرجع سابق، ص١٦.

(٢،٣) أحمد عبد الرحيم السايح: مرجع سابق، ص١٠٥.

عندما تلتقى – هو قدر لا سبيل إلى مغالبته أو تجنبه. ولكنه دائمًا وأبدًا وفق هذا القانون الحاكم التميز بين ما هو مشترك إنسانى عام تفتح له الأبواب والنوافذ بل ويطلبه العقلاء ويجدون السعى فى تحصيله وبين ما هو خصوصية حضارية يدققون فى حذر – قبل استلهامه وتمثله، ويعرضونه على معايير مع هويتهم الحضارية وقيمهم الاعتقادية[1].

ومما لا شك فيه أنه كلما استلهمت الحضارات ما هو مشترك إنسانى عام، تقدمت الحضارات واستفادت وازدهرت وانتشر الأمن والآمان.

والتفاعل والوعى بلقاء الحضارات ضرورة إنسانية، لابد منها لقيام الحضارات، وتقدم الإنسان فى كل ما من شأنه أن يأخذ بيد الإنسان، ويشيع فى المجتمعات الإنسانية السلام والأمن.

ويكاد يكون مؤكدًا أنه لا توجد حضارة قامت ذاتها، واكتفت بذاتها مستغنية عن غيرها، وإنما هى نتيجة تطور حضارى دائم وتفاعل بين حضارات أخرى تفاعلت هى بدورها وغيرها من الحضارات فى الزمان والمكان.

صدام مصالح أم صدام حضارات أم صدام أديان ؟

قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات :١٣] . فالله سبحانه وتعالى خلق الناس من نفس واحدة وجعل منها زوجها، من ذكر وأنثى هما آدم وحواء وجعل العباد شعوبًا وقبائل، والشعوب أعم من القبائل، فلا فرق بينهم جميعًا، وليس لأحد أن يفخر على أحد بأب أو أم أو بأجداد؛ لأن أصل الجميع واحد، فلا اعتداد بحسب أو نسب، فكلهم لآدم وآدم من تراب، وجعلهم الله تعالى شعوبًا وقبائل متنوعة وكثيرة، ليكون التعارف والتآلف، والتضامن والتعاطف فلا يتفرقون ولا يختلفون، ولا يتفاخرون، ولا يتقاتلون، فالحكمة من جعلهم شعوبًا وقبائل أن يعرف بعضهم نسب بعض، ولا ينسب أحد لغير آبائه ولا يتفاخرون، فلا فضل لأحد إلا بالتقوى ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾.

وهناك مقولة منطقية نصها: "ليست هناك صداقة دائمة أو عداوة دائمة، وإنما هناك

(١) محمد عمارة: الغزو الفكرى وهم أم حقيقة، مرجع سابق، ص٢٠٥.

مصالح دائمة". ومن هنا يكون الحديث دائمًا عن تبادل المصالح بين دول العالم شرقه وغربه، ولا يمكن لدوله أن تعيش فى معزل عن بقية دول العالم، فالدولة كبرت أم صغرت تحتاج لغيرها من الدول فى تبادل المصالح حتى وإن اختلفت مع الغير فى العقيدة الدينية أو الفكر الثقافى أو الاتجاهات السياسية.

وكانت مصر وما زالت – خلال النصف الثانى من القرن العشرين – تتبادل المصالح مع كل دول العالم دون استثناء مهما اختلفت معها فى النواحى الدينية والثقافية والسياسية. لقد تعاملت مصر مع المعسكر الغربى بزعامة الولايات المتحدة فى النواحى الاقتصادية والتعليمية وإن اختلف مع دول المعسكر دينا وثقافة وسياسة، بل كانت تحارب القواعد العسكرية الغربية وتعاملت مصر مع دول المعسكر الشرقى بزعامة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية فى الجوانب الاقتصادية والتعليمية، رغم أن مصر لا تعترف بالفكر الماركسى بل تحاربه سواء داخل مصر أو فى الدول العربية والإسلامية الشقيقة[1].

وهكذا نتغلب على المصالح المشتركة بين الدول الإسلامية والدول الغربية وخاصة فى المجالات الثقافية والتعليمية، وفى السنوات الأخيرة من القرن العشرين وأوائل القرن الحادى والعشرين، ونتيجة لظهور ما عرف بالنظام العالمى الجديد الذى تتربع عليه الولايات المتحدة الأمريكية، وتفكك الاتحاد السوفييتى، بدأنا نسمع فى دول الغرب عن ربط الإرهاب بالإسلام والمسلمين، وأن العدو الآن للدول الغربية هو الإسلام، بل ونقرأ كتابات عن نهاية العالم، وصدام الحضارات[2].

ومن هنا كان لابد من مواجهة هذه الحملة المغرضة ضد الإسلام والمسلمين وذلك بعقد الندوات والمؤتمرات ونشر المقالات سواء فى الدول الإسلامية أو فى دول الغرب، بمعنى مخاطبة الآخر – الغرب – بأن الإسلام لا صلة له بالإرهاب، وبأن الحضارات تتفاعل، ولا تتصادم، وإن الاختلاف الدينى والثقافى بين الإسلام والغرب لا يحتم بالضرورة صدامًا، قال تعالى فى ذلك: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون].

وهناك مصالح مشتركة بين الإسلام والغرب وإن اختلفت الرؤى السياسية أو العقيدة الدينية أو الفكر الثقافى بين الطرفين (الإسلام والغرب)، وهذه المصالح المشتركة فى

---

(١) رأفت غنيمى الشيخ: مصالح أم تصادم حضارات، سلسلة فكر المواجهة(٢)، الإسلام ... وحوار الحضارات، دار البيان للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص١١٩-١٢٠.

(٢) المرجع نفسه، ص١٢٠.

الجوانب الآتية:

١ - المصالح الاقتصادية:

حيث تشمل المصالح الاقتصادية بين الدول الإسلامية والدول الغربية فى مجال البترول والتجارة، حيث يتم التبادل بين الجانبين على النحو التالى:

أ- البترول:

أى: قيام شركات البترول الغربية فى التنقيب عن البترول فى الدول العربية والإسلامية بما تملكه من تقنيات تكنولوجية وبشرية. وقد أثبتت الدراسات بأن الدول الإسلامية لها ثقلها فى منظمة الأوبك: "أى الدول المنتجة والمصدرة للبترول" حيث إن هذه الدول لديها ما يزيد عن ٦٠٪ من احتياطى البترول العالمى، وتنتج ما يزيد عن ٤٠٪ من الإنتاج العالمى للبترول، ومعظم إنتاج الدول الإسلامية من البترول تستهلكه الدول الغربية، كما تشارك شركات البترول الغربية فى استخراجه وتسويقه[1].

وهذا يمثل مصلحة مشتركة بين الطرفين وإن كانت الشركات الغربية تحقق استفادة أكبر لحصولها على عوائد كثيرة كاستخدام تقنيتها، ودفع مستحقات الدول العربية والإسلامية بعملات الدول الأوروبية خاصة الدولار والتى توضع فى مصارف الدول الغربية.

ب- التجارة:

الدول الإسلامية تستورد الكثير من السلع المصنعة فى الدول الغربية سواء كانت سلعًا تكنولوجية أو أسلحة ومعدات عسكرية أو سلعا وسيطة للمصانع. كما أن الدول الغربية تستورد من الدول الإسلامية الكثير من السلع والخامات اللازمة للمصانع الغربية (المواد الخام).

وخلاصة ما سبق: أن المجال الاقتصادى يمكن أن يكون محورًا للمصالح المتبادلة بين العالم الإسلامى والغربى والتى يمكن الاستفادة منها فى توضيح أن المصالح المشتركة بين الأطراف تثبت أن التفاعل بين الحضارات هو الأبقى لمسيرة الحياة واستمرارها لمصلحة الشعوب.

---

(١) رأفت غنيمى الشيخ: مرجع سابق، ص١٢١.

٢- التبادل الثقافي:

تتمثل المصالح الثقافية بين الدول الإسلامية والدول الغربية فى الاحتكاك الحضارى بين الطرفين، والتبادل الثقافى بينهما بما يعمق الفهم المتبادل، ويقلل من فكرة الصدام.

الدول الغربية استفادت من التراث الإسلامى منذ ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، وجاءت هذه الاستفادة من خلال المراكز الثقافية الإسلامية فى مالطة، والأندلس، وصقلية، وأثناء الغزوات الاستعمارية للبلاد العربية والإسلامية المعروفة باسم الحملات الصليبية، ثم أثناء الفتح العثمانى الإسلامى لأقطار شرق أوروبا.

وفى المقابل استفادت الدول العربية والإسلامية من ازدهار الحضارة الغربية بعد الثورة الصناعية فى أوروبا من خلال الغزوات الاستعمارية الأوروبية بما أتت به من مؤثرات ثقافية هزت العقول فى البلاد الإسلامية ودفعتها إلى التفكير فى أن هناك ثقافة وحضارة مزدهرة فى أوربا ، عليها أن تسعى للأخذ منها بما يتفق مع قيم المجتمعات الإسلامية[١] .

فقد استفاد محمد على حاكم مصر العثمانى من الحضارة الأوروبية فى استقدام العلماء من أوروبا، وكان للبعثات التبشيرية (التنصيرية) الغربية تأثيرها فى الدول الإسلامية، فعلى سبيل المثال: نشطت تلك البعثات فى أقطار الشام ، ومصر والخليج، والسودان ، والصومال ، وأقطار شمال إفريقيا .. وذلك من خلال ما أسسته من مدارس وكنائس ومستوصفات ونوادى اجتماعية ورياضية .. ومشاغل لتعليم الفتيات مهن الحياكة والتطريز وأعمال الإبرة وغير ذلك[٢] .

ويعيش العالم الإسلامى حاليا تحت ضغط الغزو الثقافى الغربى الساعى للتأثير على الهوية الثقافية والإسلامية من خلال القنوات الفضائية الغربية والإنترنت ، والصحف الغربية، ومعظمها تبث قيما لا تتفق مع القيم السائدة عند المسلمين، ومن ثم فالعالم الإسلامى: دوله ومؤسساته الإعلامية والثقافية والتعليمية ، يقع عليها عبء التصدى لهذا الغزو الثقافى ببرامج واضحة لتسليح أبناء المسلمين بالفكر المستنير ومخاطبة الأخير – الغرب – بالحجة والمنطق[٣].

---

(١) المرجع السابق، ص١٢٧.
(٢) رأفت غنيمى الشيخ، مرجع سابق، ص١٢٧.
(٣) المرجع نفسه، ص١٢٨- ١٢٩.

ولنا فى تجربة اليابان وكوريا الجنوبية مثل فى هذا، حيث استفادت الدولتان من الحضارة الغربية فى تطوير نواحى حياة الشعبين اليابانى والكورى الثقافية والتعليمية والسياسية، مع المحافظة على الهوية الثقافية للشعبين، ودراسة هذه الخاصية (الحقيقة) خاصة منذ عهد ميجى أو عصر النهضة ابتداء من عام ١٨٦٨م ثم البناء المعاصر بعد الحرب العالمية الثانية[١].

وهكذا يمكن لنا الاستفادة من الجوانب الثقافية المتعددة فى التحاور مع الغرب، وذلك لمصلحة شعوب العالم الإسلامى والغربى معًا.

٣- المصالح السياسية:

تنطلق المصالح السياسية بين الطرفين (الإسلام والغرب) من خلال عضوية كل من الطرفين فى منظمة الأمم المتحدة (الجمعية العامة للأمم المتحدة) ومنظاماتها وهيئاتها المتخصصة، حيث يتم تبادل الآراء والأفكار والمواقف والرؤى أو أى اتفاق بين الطرفين.

ويشعر المسلمون بالضيق بسبب سياسة الكيل بمكيالين التى يتخذها الغرب من قضايا العالم الإسلامى، فعلى سبيل المثال: فقد أيدت القوى الغربية تمزيق أندونسيا بالضغط على حكومة جاكرتا حتى تم إجراء استفتاء لشعب تيمور الشرقية ليحصل على الاستقلال عن جمهوريته أندونسيا، وقد تم ذلك بالفعل، هذا فى الوقت الذى لم تشجع فيه على إجراء استفتاء لشعب كشمير لأن أغلبيته مسلمة.

ومن هنا كان على منظمة المؤتمر الإسلامى الذى تنتظم فيه كل الدول الإسلامية، وجميع الدول العربية والإسلامية ،مسؤولية متابعة قضايا العالم الإسلامى، محاولين التأثير على موقف الدول الغربية السياسى دون كلل ليس بالتوسل، وإنما باستخدام المصالح المتبادلة بين العالم الإسلامى والعالم الغربى، ومن هنا تأتى السياسة التى يجب على العالم الإسلامى اتباعها وتفعيل الآليات المؤثرة.

وقد ناقش كثيرون معارضون " هينتنجتون " في صدام الحضارات، مبينين: أن الدافع الحقيقي وراء الحروب إنما هو مصالح الدول والقوى الكبرى، ومطامع الزعماء، وليس الخلاف الحضاري. قال ذلك الدكتور بيكو المكلف بحوار الحضارات في الأمم المتحدة في

(١) رأفت غنيمى الشيخ: مرجع سابق، ص١٢٩.

لقائه بقناة الجزيرة وقال ذلك الدكتور الجابري في تعقيبه على " هينتنجتون " وكتابه وهذه عبارته: لو أن الكاتب كان يفكر في قضايا عصره من أجل فهمها، والتماس حلول تخدم صالح الإنسانية ككل، مع افتراض أنه مقتنع فعلا بأن " صدام الحضارات " يهدد الأمن العالمي في المستقبل، كان المفروض أن ينتهي هذا الكاتب إلى نتيجة يدعو فيها جميع الجهات، وجميع الدول والأمم، إلى الوعي بهذا الخطر، ويقترح عليها اتخاذ التدابير الضرورية الكفيلة بتلافي هذا الخطر الماحق. لكن صاحب المقالة سلك مسلكا آخر معاكسا تماما، فتعامل منذ البداية مع " الفرضية " لا كمجرد فرضية تعبر عن احتمال وقوع أمر ما، بل كحقيقة تاريخية حكمت تطور التاريخ في الماضي وستحكمه في المستقبل. وهكذا راح يعيد بناء " التاريخ كله " بالصورة التي تجعل منه " صدام الحضارات " الماضي في ذلك والحاضر سواء،باذلا كل جهده لحشد الأمثلة والوقائع التي تؤيد هذه " الحقيقة التاريخية " المزعومة: يختار أمثلة من هنا وهناك، ويؤولها تأويلا يبتعد بها عن إطارها ويلبسها دلالات لا تحتملها [1] .

والهدف من كل ذلك: التهويل والتخويف، وإعداد القارئ لتقبل النتيجة وتحمل ما يلزم عنها، وكأن ذلك قدر لا مفر منه. والنتيجة التي أفصحت عنها المقالة هي: ضرورة أن يستمر الغرب في تطوير قواه العسكرية ،وبالتالي ضرورة أن يصرف ما يلزم من الأموال في سبيل ذلك.

ويقول الجابري: إن هناك ثابتا واحدا أساسيا في موقف الغرب، والباقي متغيرات. والموقف من الإسلام أو من الصين أو من اليابان أو من أية دولة أخرى في العالم يتغير دائما، وقد يقفز من النقيض إلى النقيض، إذا اقتضى ذلك منطق " الثابت ". وليس الثابت في تحركات الغرب شيئا آخر غير المصالح، فعندما تمس مصالح الغرب أو يكون هناك ما يتهددها تغير الموقف. وفي النهاية يقول: الغرب مصالح ولا شيء غير المصالح، وكل حوار معه أو تفكير ضده لا ينطلق من المعادلة التالية (الغرب = المصالح) إنما هو انزلاق وسقوط في شباك الخطاب التمويهي السائد في الغرب والهادف إلى صرف الأنظار عن "المصالح " وتوجيها إلى الانشغال بما يخفيها، ويقوم مقامها في تعبئة الرأي العام مثل الحضارة، والثقافة، والدين، والأصولية.

---

(١) يوسف القرضاوي: المسلمون والعولمة، مرجع سابق، ص١٢٣ - ١٢٤.

وصحيح أن الغرب تحكمه المصالح قبل كل شيء، ولكن الغرب بالنسبة للإسلام تحكمه – مع المصالح – عقد قديمة جديدة، هي عقدة الحقد، وعقدة الخوف. الحقد المتوارث من عهد الحروب الصليبية، وربما من عهد اليرموك وأجنادين وفتح مصر وشمال إفريقيا وكلها كانت مسيحية وأصبحت إسلامية. وعقدة الخوف من انطلاق المارد الإسلامي مرة أخرى. فهم يسمون الإسلام (الخطر الأخضر) خطر ظهور (صلاح الدين) من جديد، وهو الخطر المخوف رغم ضعف أهله وتفرقهم. إن هاجس الخوف مع هاجس الحقد، هما اللذان يؤثران في السياسة الغربية بل والفكر الغربي تجاه الإسلام.

ويقوي هذه الهواجس ويؤكدها في عصرنا (البعد الديني) الذي برز بوضوح في العقدين الأخيرين في أمريكا، عن طريق (المسيحية الأصولية) المرتبطة بالتوراة، والتي تعمل لخدمة الصهيونية وإسرائيل تدينا، وتعبدا [1] .

وفي الختام نود أن: يتحرر الغرب من هذه العقد، ويعامل المسلمين كما يعامل سائر الأمم والقوى في العالم. وإن كنا نؤمن أن الغرب ليس نمطا واحدا، ولا صنفا واحدا، ففي الغرب أناس وأفراد منصفون، نرجو أن يتزايدوا يوما بعد يوم.

وفى الفصل التالى نعرض لرؤى مستقبلية لعلاقة الإسلام والغرب، من حيث نقاط الاتفاق "وفاق" بين الطرفين، ومعرفة أسباب تأخر الوفاق بينهما، وآفاق بناء مستقبل مشترك.

(١) يوسف القرضاوي: المسلمون والعولمة، مرجع سابق، ص١٢٦.

obeikandl.com